نبيل سليمان

أطياف العرش

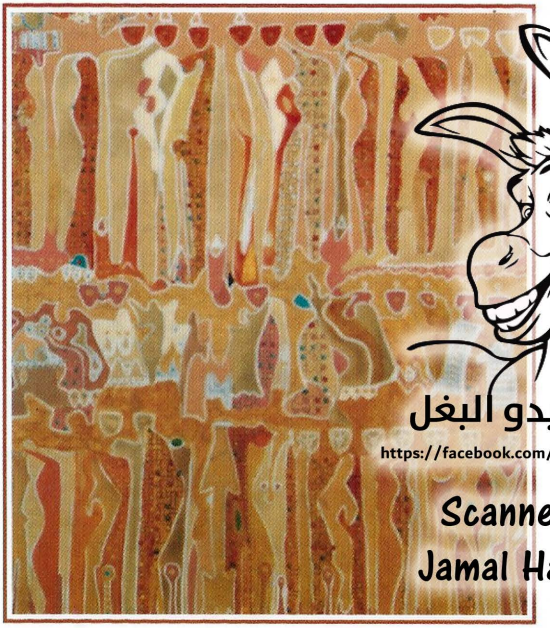

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
Scanned by
Jamal Hatmal

رواية

أطياف العرش

- أطياف العرش (رواية)
- نبيل سليمان
- الطبعة الثانية 2000

- جميع الحقوق محفوظة

- الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية- اللاذقية -ص.ب:1018
هاتف وفاكس:422339

نبيل سليمان

أطياف العرش

دار الحوار

نبيل سليمان

أطياف العرش

دار الحوار

التحوّل

1

نظرةً فنظرةً أرعدته عينا رملة. مساءً تلو المساء راحت تعصفه بزرقة أنقى من زرقة النهر وأرحب، تهجم عليه بالبحر القصيّ، تفجؤه بغمامة من مكنون هذه البادية، أو ممن كان قبل أن ينفى، تُذكر بالعفو المنسيّ، فيخشى أن يعود من جديد إلى الطويبة وحيداً، أو أن يقيم غريباً هنا، في الرقة، حتى يموت.

كانت عينا رملة قد راوغتا طويلاً هذا الذي قيل - منذ أكثر من سنة- إنه يصنع المعجزات. ربما تهيبته في البداية، شأن كثيرين وكثيرات، ربما نسيته وحدها طويلاً، قبل أن يذكّرها به الفيضان، فاندفعت: تبتسم مرة وتكظم مراراً، تغمز مرة -أو تلوّح- وتلوي مراراً، وهو غارق في انزوائه أو شغله، على مرمى وعد من النافذة التي شبّتْ فيها رملة: تغرق في النهر كما تتوه في البادية، وتنسى أنها أرمنية آواها مسلم كريم منذ كانت رضيعة، ورّباها كما ربّى بناته السمراوات الخمس، أو كما تربي هي الآن ذكوره الصغار.

ومرغماً صار طاهر عوانة يأوي إلى الفراش مبكراً، يتوسل إليها أن تدعه قريراً ومُنْبَتّاً، فتتراقص رموشها على صفحة النهر كما على صفحة البادية، ثم تنأى، لكنها لا تكاد تختفي حتى يبرق محيّاها في سماء هذه الوكنة، يفجر الحنايا ويصل ما انقطع من العمر، وإذا بالفرات

يتخلق بحراً، والرقة جبلاً، وتتسمى رملة بالطويبة، ثم تلتجئ من قمة شاهقة مروّسة بالصنوبر إلى وادٍ سحيق.

عندئذٍ كان طاهر عوانة ينبعث غريباً، يتسلّق حواف الكرمل أو فاسيون، يطير إلى حواف الطويبة الخضراء الزلقة أو الشائكة، يطارد كل سقم، يطلق فؤاده نحو طويبة الشعرا أو الطويبة الشرقية، يفرد جناحيه على مركز القضاء أو الساحل بطوله، يملأ ما بين وطا الطويبة والطويبة الغربية بما يضيق به روحه، يتمتم بما يحفظ، يفتّق ما يحفظ على هواه، حتى يشفّ فجأة ويغدو ورقة أو نسمة، ثم يعجز عما به أو أمامه، فيَجِفُ ثم يهوي، ولا يقرّ به القرار إلا في حضن المزار الذي يحمي الطويبة.

ثمة، وأحياناً في مهاوي أخرى أهونها البيت، كانت تطبق عليه الوجوه المضيئة لمزارات معلومة ومجهولة، ولشيوخ كثيرين، وهو زائغ العينين، مزبد الشفتين، جسده ينتفض، صوته يختنق، يبكي فقدان أمه وأبيه، يخاف من وحدته في الطويبة، ولا يفتأ ينقلب من طور إلى طور حتى انطلق منه النداء:

– ياسيدي.

على هون لبّى الخضر النداء. وغدا شفاء طاهر عوانة رشفة من الماء ولفحة من البخور. وبين شفاء وشفاء أخذت الطويبة تصدق الشيخ بركات:

طاهر عوانة يكلم سيدنا الخضر. سيدنا الخضر مسح على الجبين المحموم فطهّره وأبرأه. كم قلت لكم يوم ضقتم بيتمه:من لا أحد له في الأرض كلها، لا في الطويبة وحدها، له في السماء حضن يعوضّه؟!

وعلى هون ألفَ طاهر عوانة أن يرى وجوهاً خائفة ومتلفعة لرجال ونساء آوته صغيراً أو أنكرته، تطوف بالبيت الذي تقدس، وترنو إلى السقف كما يرنو، فأين ضاع ذلك من قبل أن يُنفى حتى أهلّتْ رملة؟

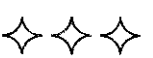

هذا هو السقف عينه. لكنّ أحداً سواه لايرى عيني رملة، كما لم ير أحد سواه الخضر. ومثل عيني رملة يَصدُق الشيخ بركات: الماء ينقط من السقف، وربما اللبن. رملة تتلمظ. الشيخ بركات يلّون سوق الحور الشهباء بمزَق ملونة كل فجر. صوتٌ جليلٌ يهتف بالناس الذين تكوموا قبل طلوع الشمس: هذا هو الكوثر الذي توعدون.

وكما يصدّقون يصدّق طاهر عوانة، على الرغم من أنه جدد بنفسه سقف البيت قبل الفرار وبعده. أما نديم المكشوح الذي يقاسم الشيخ بركات مجد الطويبة، فيندفع من الحارة الفوقا منكراً ومزمجراً. وتتكور عينا رملة، ينقطع الماء واللبن، تنطفئ الجمرة، تتعرى سوق الحور من زهوتها، يعود البيت خرابة كما كان منذ لحقت أم طاهر بأبيه، وطاهر ينكمش في فراشه، ينشأ من بيت إلى بيت حتى يعمّر الخرابة، ويلوب على أن يزرع بين الناس الوئام لا الشقاق، والحقيقة لا الخديعة.

كانت سبابة الشيخ بركات تهجم كل مرة على عين طاهر اليسرى، تكاد تفقؤها، وهو يردد: هذا رسولي إليكم. ومن عزّ الصيف

إلى عزّ الشتاء ظل يحول بين طاهر والخروج من البيت نهاراً إلا ليبول أو يطوف بالمزار. ولليال لا تحصى ظل يهدئ نديم المكشوح، ويقسم له أمام الناس أنه رأى سيدنا الخضر في المنام يطير بين الجبل والبحر هاتفاً: هذا رسولي إليكم.

غير أن نديم المكشوح كان في كل مرة يشتم طاهر عوانة والشيخ بركات معاً، يستغفر الخضر وينزهه عن أن يظهر في تلك الخرابة، أو في أيٍّ من خرائب الطويبة، أو في هذا الزمن الأغبر، ويملأ الفضاء سخْراً بعقول الناس الذين صاروا - قبل أن ينقضي الشتاء - يتقاطرون من قرى القضاء كافة إلى معجزة الزمان.

قبل أن ينقضي الشتاء أيضاً كان ليل طاهر عوانة قد أخذ يتطاول هَلعاً من تأليب نديم المكشوح للشيوخ خاصة، أو من تأليب مدير الناحية، أو قائد الفصيل، على: بدعة الزمان. كذلك صار في غمضة عين: معجزةً وبدعة. ولا يرتاب الآن في أنه كان سيغدو عجباً آخر وأكبر، لولا أنْ رُمي ها هنا، قرب رملة، على سيف النهر، وفي تمّ البادية.

وهذا هو الليل قد عاد يتطاول، سوى أنه الآن أكبر هلعاً، يقذفه بوجه أنقى من قمرة تشرين، وشعر أعتم من غيمة كانون، ويزهق روحه حتى تمسح كف على جبينه فيهتف:

- إبعدْ عني يا شيخ بركات ابعدْ.

وتدنو رملة، تبخره بضوعها وتنادي: ياغزال الريم ريمْ ريمْ ما وراك إلا الحريمْ.

يلتفت الغزال أنيساً ويلوّن الأمداء. يلحق بهما هو وصوته يلعلع: ياغزال حاصْ حاصْ ماوراك إلا الرصاصْ. يومض الغزال ويختفي. تهتف رملة من حلقه:

- ادنُ مني يا شيخ بركات ادنُ

فيدنو الشيخ بركات حتى يأتي على رملة والغزال، ويكشف طاهر عوانة سراً، وتجعر رملة من حلقه:

- ماهذا؟

- اللبن. اليوم دور اللبن.

همس الشيخ بركات، فجعر طاهر هذه المرة:

- نديم المكشوح معه حق اذن!

- الحق معنا.

قال الشيخ بركات:

- والناس؟

سأل طاهر خائفاً وحانقاً ومحتاراً، فألوى الشيخ بركات مغمغماً، ولهجت مهجة:

- سامحني ياسيدي يا أبو العباس.

عندئذٍ علا صوت الشيخ بركات:

- سامحنا كلنا يا سيدي. كرمى لك وكرمى لمن أرسلت في المنام أسقيهم. بشفاعتك اسقنا من ماء الجنة ومن لبنها. إنا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربك وانحرْ. إن شانئك هو الأبتر.

أبرقت رملة، وناح طاهر:

- والله هذا من علامات الساعة!

- صدقت.

تناهى صوت ليس بصوت الشيخ بركات، ولا بصوت رملة التي هدلت:

- وأنا من لم يشكّ لحظة في أن السقف ينقط!

ترجّع الصوت في حلق طاهر:

- من الذي كان ينادي إذن؟ ومن كنت أنادي؟

- سيدي أبو العباس لا غيره. لكن الناس زاد فجورها. ولولا هذا الذي تراني أفعله لأنكروا منامي وكذبوك. الله وحده يلهم وعلينا التدبير.

كان صوت الشيخ بركات جلياً هذه المرة. وكانت رملة تختفي في حضنه.

- الله يعلم، نعم، والعبد عليه أن يُحسْن التدبير، لا أن يسيء.

ناس صوت طاهر.

- أشرْ عليّ إذن يا سيدي.

قال الشيخ بركات متضرعاً، وتضرعت رملة، فأمر طاهر:

توقفْ عن هذا.

وقبل أن يتمّ عبارته انطلق صوت ينشج:

- يمزقونك ويمزقوني معك، وأولهم نديم المكشوح.

وغدا الكون خواء.

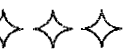

هو السقف عينه، سوق الحور الشهباء، المزق الخضراء، الفجر تلو الفجر، والخضر لا يظهر، ولا رملة تظهر. أما الشيخ بركات فيبدل القربة التي أخفاها السقف بأخرى أكبر. وبدلاً من ثقب واحد للأولى يجعل للأخرى ثقبين. وما إنْ ينقط الماء حتى يدوي في صدر طاهر نذير ينهى عن الضلال. إثر النذير - والقربة تلوّن ما تنقط - يدوي في المكان بشير يدعو إلى التقوى. إثر البشير - وقد جفَّ ريق طاهر - يدوّي الرعب من أن تفاجئ الساعةُ البشرَ وهم لا هون. ومن شروق الشمس إلى مغيبها لا يفتر الدوي، والأعناق تنتكس مروّعة من نذر لم يفه أحد أو يمين حنث به أحد.

لكي تستوي الأعناق شرعت عينا طاهر التائهتان تمنحان البركة، تعلنان مثلها التوبة، وشهاب يضيء القمم المروّسة بالصنوبر، لا فرق بين ليل ونهار. وربما كان ذلك سوف يمتد حتى الساعة، لولا أن الحلوق شرقت بالدمع، والشيخ بركات راح يتنحّى لصادق العروضي، والحملة - أخيراً - دهمت الطويبة.

الآن يتبدد كل شيء: الدركي يمتطي ظهر طاهر عوانة. صادق العروضي إلى الخلف ينيخ تحت دركي أنحف. الدكتور والكابتن آلان وقائد الفصيل ورئيس المخفر تضيعهم قهقهاتهم. دعاء الشيخ بركات يملأ الفضاء. الخيل ترفس لسبب ما، ورملة لا تبين.

كانت كل خطوة يخطوها طاهر بالدركي صُعُداً تزيده يقيناً بقبول التوبة. وفي كل يوم أمضى من بعد في السجن كان يزداد نأياً عن صادق العروضي.

كان في كل نبضة يناشد الخضر أن يطير به إلى أرض لم تطأها قدم، وينذر أن ينسى مافات، ويبدأ من جديد. ولما صدر الحكم تبسم رضياً، واستغفر للحاكم الذي تعلل للنفي بالشعوذة والاحتيال، وذكر - مرة على الأقل - الصرع والهبل.

ما إنْ أخذت البوسطة تتلوى في أول الطريق حتى تطلّع طاهر إلى السماء وتمتم:

- عساك تعود يا صادق قبل العيد.

أمّن صادق خلفه، واستسلم إلى صمت طاهر الذي طال أكثر الطريق، ثم أطبق في الرقة شهوراً، حتى جاء الشاويش بنفسه إلى الخان عشية العيد ونادى بالعفو.

همس طاهر آمراً:

- قمْ يا صادق.

سأل الشاويش مذهولاً:

- لماذا لا تقوم أنت؟ ما سمّيتك ولا سمّيته. ماأدراك؟

نفض طاهر ثوبه النفضة الأخيرة، فقد ولّى ذلك الزمن، وانقضت له خمس وعشرون سنة، أو ثلاثون،أو عشرون، وابتدأ عمر جديد، لن يرضع فيه من ثدي أمّ، ولن يرعى فيه معزاة أو يرضع ثديها، فيما صادق العروضي يركبها كل ظهيرة، متشهياً أية امرأة تنقل الحطب الأخضر على رأسها، حتى لو كانت بنت الشيخ بركات أو أخت نديم المكشوح.

بيد أن طاهر لم يكد يلاقي عمره الجديد ويغادر الخان إلى هذا البيت حتى أعلنت رملة في نفسها. ولا ريب أنها كانت تنتظر منذ

ذبح أبوها وتاهت أمها عنها. لذلك راح يبث عينيها الزرقاوين ما عاش في حياته الأولى، ينقط لها العسل من أول الليل إلى آخره، يبخرها بأنفاسه، يلفها بمزق من كل لون، يتقرى النهار الذي تضيئ عيناها، يراوغ كما تراوغان، يكظم ويتكور ويلوي ويتراقص ويحيي كما تفعل، يدق كما تدق. وربما كان ذلك سوف يغدو الناموس لولا أنها تشق الآن هذا الشفق، وتنتصب في قلب النهر، فماذا يسع طاهر عوانة أن يفعل؟

كان آيبا من المطحنة شأنه كل مغيب، منذ غادر صادق العروضي. افتقد رملة في النافذة فتراخت خطاه، وغص. ولعل خطاه كانت ستنقطع دون البيت، أو لعل غصته كانت ستظل تكبر، لولا أن رملة تلامحت. وقبل أن يتبينها كانت قد حيت. تنحنح، ثم خرس، ثم هم بالسير، فغرغرت:

- اضحك، ما رأيتك مرة تضحك.

التفت إلى النهر هامسا:

- صدقت.

- لماذا.

سألت حانية، فارتد إليها وهمس بوله:

- اسإلي نفسك.

- ماذا تريد مني؟

سألت بحزم مباغت، فتعتع:

- كل خير. روحي الآن ولا تقفي في درب هكذا، النافذة وحدها تكفي.

تضرجت وجنتاها وهي تنسحب، وطفق يرمقها حتى اختفت، فعاد إلى النهر الذي بدت صفحته تتضرج وتتماهى بالأفق. وأقعى في مطرحه يفكر في أن رملة ليست من النساء اللواتي عرف في حياته الأولى، لا في الطوبية ولا في غيرها، ليس لأنها أرمنية، ولا لأنها قد تكون مسيحية ومسلمة معا. ليس لأنها مثله في الرقة قريرة ومنبتة، بل لسر يغمض الآن، إلا أنه سوف ينجلي في يوم ما عاد بعيدا.

ومن يدري - يتساءل- وهو يندفع عارما . فقد تكون النساء جميعا عندئذ غيرهن في الجيل الذي مضى والعمر الذي عاش. قد يجلو السر دنيا أخرى لم يعرفها طاهر عوانة الذي مات، ورضي الله عنه، فبعثه إ نسيا، ولم يمسخ جنيا أو حيوانا، كما رضي هو عن قميصه البشري الجديد، وبات قادرا على أن يشكله كيف يشاء. غير أنه لن يبدأ حتى تأتي الإشارة، ويغدو حرا، لا يجر قدميه كل صباح إلى المطحنة، لا يداري الشاويش، ولا ينصلب على نهر ولا على نافذة.

2

لوّح موزع البريد بظرف قذر مدعوك وهو ينادي بأعلى صوته:
- أول رسالة لطاهر عوانة بعد أكثر من سنة في الرقة. ما كان لك أن تجبرني على الحضور إلى هنا. الرسالة تنتظر من عشرين يوماً. وحق سيدي ويس ما عملت هذا لغيرك.

تلقف طاهر الظرف وقلّبه ببله. وفيما انصرف الموزع كان يتهجّى ثانية اسم صادق العروضي وكلمة طرابلس، ويزداد بلهاً. فضّ الظرف بحذر، وتناهبت عيناه السطور:

"سيدي: لولا خوفي من أن يضيع المكتوب ما كتبت عليه إلا: الطوبجي. ما عاد أحد يذكر طاهر عوانة. من نادى الطوبجي لأول مرة ياسيدي؟ من لحظة وصولي توهني السؤال، لذلك قلت لهم: نادانا سيدي أبو العباس إلى أرضه الجديدة، وهذا هو النفي الذي سخر الله لنا من أجله المحكمة. بِمَ أحلف لك حتى تصدقني ياسيدي؟ هذا ماكنت أسمع في السجن، في المحكمة، طول الطريق إلى الرقة. وفي الرقة كنت أسمع ليل نهار وأنت صامت ومنصرف عني. ولما دعوتَ لي بالفرج، وصحّ الدعاء، تأكد لي ما كنت أسمع، وحرت وأنا أفارقك بين غضبك ورضاك.

نديم المكشوح وأمثاله عيونهم مفتحة علينا. الكابتن آلان ما اكتفى بما فعل. كأنه يريد أن يتأكد كل ساعة أننا نسينا. لذلك لبدنا

كل هذه المدة. ما قدرت أن أتحرك حتى قالوا: سافر في إجازة طويلة. إلى جهنم. ادع عليه ياسيدي.

للأسف ما قدرنا على حماية البيت. كنا نحمي رقابنا ونديم المكشوح وأمثاله يدنسون العتبة الشريفة. ادع عليهم ياسيدي.

أخيرا درت مع الشيخ بركات على الأنوار السبعة. ثلاثة منهم مازالوا على العهد. ثلاثة خانوا. السابع يشبحه الخوف وضعف اليقين بين بين.

أنا والشيخ بركات جمعنا من الناس ما أمكن، وما بخلوا علينا، أعرف أن هذا لن يعجبك. ولكن لولاه ياسيدي ما قدرت على أن أذهب إلى المدينة وإلى بيروت، وأدبر العفو القريب.

ابشر ياسيدي.

بعدما تأكدت من هذا، رجعت للشيخ بركات والأنوار الثلاثة. الآن رجع لنا الأخير، وجمعنا سوية من الناس مرة ثانية حتى نزين لك الطريق. كما يصل إليك بعد أيام قليلة الشيخ بركات ومعه ألف ليرة. لابد أن تنفع في الغربة وفي الرجوع. لو رغبت بزيادة أوص الشيخ بركات. أما إذا تأخر العفو فلن أتأخر بألف ثانية. ولولا الحذر لكنت أحملها بنفسي. لولا الحذر لسبقت الشيخ بركات إليك. المهم أن تعود إلينا قبل أن يعود الكابتن النجس. دائما كنت تقول ياسيدي: صادق العروضي يحسن التدبير. الشيخ بركات لازالت السفاسف تلعب به بين حين وحين. ما كل من طقطق قال أنا حداد، وما كل طير غنى بلبل. صدق المثل وصدقت ياسيدي."

أودع الورقة في الظرف، والظرف في جيبه، وضجت أعماقه: هذه هي الإشارة الموعودة. أنت الآن حر يا طوبي. قبل أن يصدر العفو، قبل أن يصل الشيخ بركات، أنت حر. من اليوم: لا مطحنة، لا قيام ولا قعود. ارجع إلى فراشك حتى يصل الشيخ بركات.

لماذا تأخر؟ هو يخطب لك رملة. الألف ليرة تزوجك منها. ومن بعد تمشي بها حيث ترغب. ولو شئت اخفق بيديك، وعلمها كيف تخفق، حتى تطيرا في أجناب الأرض والسماء.

داخ قليلا وهو يستدير إلى البيت. طنت واحدة من أذنيه وخرست الأخرى. دارت الخطى القليلة به وتمايلت الأشياء. تلمس عبثا حتى تلقفه الفراش. نادى الخضر ملتاعا. جزع وهو يدرك أن الدوار يعاوده، ثم استسلم. شق الأعماق صوت يؤكد أن ليس هذا ما كان يصيبه في حياته الأولى. اختفى الصوت مثلما تنقطع نياط القلب. تلاشت أنفاسه وشفتاه تلهجان: أنا الطوبي. هذا هو الطوبي. الطوبي يا طاهر عوانة. الطوبي يا صادق العروضي. الطوبي يا شيخ بركات ويا أنواري. الطوبي يا رملة. وسكرت أذناه بأصداء اسمه.

من الفرات إلى البحر، من البادية إلى الجبل، ترجعت الأصداء الشجية، فتمطى وعفط لطاهر عوانة الذي لازمه الدوار منذ رجع إلى الطويبة حتى انتزعه منها الكابتن آلان. تلفت فإذا بالكابتن يهتف: سيدي الطوبي. ردد الهتاف الطروب قائد الفصيل والدكتور ورئيس المخفر والدركي البدين والدركي النحيف.

تاهت الأصداء في كل مكان كما تاه طاهر عوانة منذ سنين. لم الأصداء في صميمه والنقط طاهر عوانة من جوار النبي يحيى، وصاح به:

- من أكون؟

رفع طاهر عوانة رأسه لأول مرة منذ فر من الخدمة العسكرية، وأدمعت عيناه وهو يتمتم: رضاك ياسيدي الطويبي. حمل الطويبي طاهر عوانة على راحته. غسله وأطعمه وكساه، واستل من جنبه الرصاصة التي أصابته أول فراره. تعافى طاهر وكرج على راحة الطويبي من أقصاها إلى أقصاها. قال الطويبي:

- مت الآن. مت، ولو رشح جبينك وذرفت عيناك وانتشر منخراك فاعلم أنها رحمة نزلت بك، وأنك من المؤمنين. أما إذا غططت غطيط البقر المخنوق وخمد لونك وأزبد شدقاك، فاعلم أنه عذاب نزل بك وأنك من الكافرين.

قال طاهر وهو يموت:

- ها هي نفسي ياسيدي تنسل رهيفة. ها هو كفني ياسيدي يترقرق بنسيم الغوطة.

قال الطويبي:

- وعما قليل يأتي من يكفنك ويحنطك بالمسك الأذفر، ثم يحضر من سيسربلك بحلة صفراء، لا تتعجل. هذا كله من أثر الجنة. وعما قليل يأتي من ينزلك إلى قبرك. لا تخف. القبر يفسح لك مسيرة يوم خلفا ويومين أماما وشهر يسارا وشهرين يمينا حتى تطوي ما بين رأس قاسيون ووادي الطويبة، وتهتف لك الأرض: كنت أحبك وأنت تمشي على ظهري، أما الآن فانظر يا طاهر: مد

البصر ينجلي لك. هاها. أنا أغني لك: نم نومة العروس في فراشها حتى يصدعك أمر جديد.

قال طاهر:

- نفسي ياسيدي تنخلع من بدني مثل السيخ. الأرض تهتف بي ياسيدي: لا مرحبا بك ولا أهلا. كنت أبغض من يمشي على ظهري، والآن وقد وليتك فانظر.

طوح الطويبي به صارخا:

- وعما قليل يوكل بروحك ثلاثماية شيطان ليس فيهم من لا يبصق في وجهك. عما قليل تطويك حفرتك حتى يخرق كل ضلع فيك أضلاعك كلها، وينفتح عليك باب للنار يهمي بقيحها ولهبها، وهذا أهون الجزاء.

نبح طاهر:

- آه ياسيدي. أعلم أعلم.

سأل الطويبي وهو يبتعد:

- من أين لك أن تعلم؟ نسيت من كان الصبي المصروع؟ نسيت خيزرانة الشيخ بركات ومن كان بالكاد يفك الحرف يوم جروه إلى القشلة؟

قال طاهر ويداه تلوبان كصوته في الفضاء:

- لا ياسيدي ما نسيت. ما نسيت من أسرته قشلة طرابلس ولسعته براري فلسطين. نسيت أنت ياسيدي ما علمتني كنسية القلعة وكنسية الرجفة؟ جامع الساطون والأموي؟ سيدي خالد والشيخ خميس؟ نسيت ياسيدي يافا والناصرة ونابلس والشام

وحمص والمدينة؟ القلانس والعمائم والطرابيش؟ مجاورة النبي يحيى وعيد النبي روبين؟ كل ليلة ياسيدي كانت تعلمني ما لم تعلم خيزارنة الشيخ بركات في سنة. ما نسيت وحده ياسيدي أضعاف ما يحفظ الشيخ بركات والطويبة.

قال الطويبي وقد غدا وحيداً:

- كم حفظت وكم عرفت وكم نسيت وكم جهلت كم عشت منكوداً.

وزحف من الفراش إلى وسط الحصير منادياً:

- أين أنت الآن يا طاهر عوانة؟

تربّع طاهر على طرف الحصير. سُرّ الطويبي وقال برقة:

- اقتربْ. لا تخفْ بعد الآن. ما زال الحساب بعيداً.

انقلب طاهر صبياً عاري القفا أو الظهر أو الصدر. حمل الصبي فأساً على كتفه واستدار. نادى الطويبي:

- إلى أين؟ قلت لك انسَ المطحنة.

قال الصبي:

- أنا أركش في حواكير نديم المكيشوح. هذه الطويبة لا الرقة ياسيدي. غضّ الطويبي حتى عاد الصبي أكبر وبيده رسن بغل، فسأل:

- لمن يكون هذا؟

همس الفتى بخوف:

- للتحصلدار ياسيدي. اشهدْ عليّ: من ساعة وصول الرجل حتى ساعة رواحه كما ترى. حتى لو نام في الطويبة ثلاثة أيام لا

يسوس البغل أحد غيري. لكن هذا كله لا يشفع لي. هل يضربني من أجل أن يضحك الآخرين؟

نبق التحصلدار أمام البغل يحف به كثيرون. تراقص كرباج طويلا قبل أن يهوي على رأس طاهر عوانة. فرقعت الضحات والفتى ينط إلى وسط الحصير، وينطمر في الطويبي. وصاح نديم المكشوح:

- ما خلصنا من أول دجال حتى جاء غيره؟

قال الطويبي:

- ما أدراك بحكمة الله؟

قال نديم المكشوح بصوت أخفت:

- أنت لا تعرفه إذن. من صغره قلت لأمه رحمها الله: هذا الولد نجس. على بزها كان يرغط كأن الجن تسكنه. لم تنفع معه خلعة ولا بخورة ولا حجاب. ولما كبر قلنا: هدأ، وحمدنا الله على لطفه باليتيم. ولما جندوه حمدنا الله. لما هرب حمدنا الله. لما نجا حمدنا الله. لكن أساسه فاسد كما ترى. غضب الله نزل عليه، وعلينا نزل بسببه. ما كان أمامنا إلا أن نخلص منه.

قال الطويبي:

- هو مبارك وحكيم. وكما نصره الله على الأتراك ينصره على الفرنسيين وعليكم وعلى أعدائه أجمعين. آمين.

انبثق طاهر عوانة من الطويبي مهللا. اختفى نديم المكشوح. نطت الحصير حتى السقف. وعندما هبطت انقلبت مصطبة يتوسطها شاب يشكو:

- قتلني طاهر عوانة ياسيدي.

أقسم طاهر بالطويبي نفسه أنه لم يقتل نملة، لا في حياته ولا في مماته. نطت الحصير حتى السقف. وعندما هبطت انقلبت حاكورة مدروزة بالعمائم والشملات واللهجات. وسأل الطويبي الشاب الذي لم يبرح مكانه وقد هدته علته:

- كيف قتلك يا ولدي؟

قال الشاب وهو يحتضر:

- جاء ليداويني فقتلني.

قال الطويبي:

- ما قتلك إلا ما كنت تحكيه يا ولدي. بدنك ما حمل روحك.

قال طاهر الذي صار بهلولا يتوكأ على قضيب غض من الرمان:

- خلصته من قميصه يا سيدي وأسكنته قميصي.

صاحت أصوات مهددة:

- أنت القاتل. الدواء الذي وصفت لابننا قتله. لولاك ما مات.

انطمر طاهر هذه المرة في فراشه حتى زوال الشمس يوم الجمعة، حين لكزه الطويبي آمرا:

- قم. ميتة الشاب مباركة. أعلاه الله من ضغطة القبر ومن عذاب النار.

صاحت أصوات ساخرة:

- كل هذا لأنك قتلته يوم الجمعة؟

لعن الطوبي الأصوات المهددة والساخرة، ونبق ملاك يملأ ما بين السماء والأرض.

- صاح طاهر:آه ياسيدي. كأن جسمي في جب من نار. كأني أتنفس من خرم إبرة. كأن قضيباً من الشوك يُستلّ من قدمي إلى دماغي. آه ياسيدي. هذا سفّود محمّى بيد حدادنا، وأنا صوف رطب.

سأل الطوبي مستهيناً:

- ماذا رأيت بعد؟

قال طاهر وهو ينط ويحط:

- وماذا بقي؟ ها أنا عصفور أُقْلى حياً، لا أموت فأستريح ولا أنجو فأطير.

قال الطوبي:

- هذا هو الموت الذي نشدت.

قال طاهر وهو يهمد:

- نشدت الخضر ياسيدي.

ذبَّ الناسَ الشيخ بركات وحدب على طاهر. انطمر الطوبي هذه المرة في فراشه حتى تبلّغ الشيخ بركات رسالة الخضر وبلّغها. احتار طاهر بين أمسه ويومه.

قال الشيخ بركات:

- إلهام وتدبير.

ملأ صادق العروضي الباب تفوح منه رائحة البغال، ويلون وجهه هباب الفحم. قال الطويبي:

- أهلاً بحدادنا وبيطارنا.

قال طاهر:

- وحارس الطويبة أيضاً ياسيدي. ما اكتفى بالحدادة والبيطرة. ظل يدور بين مركز القضاء ومركز الناحية سنة حتى حصل على الوظيفة. صادق العروضي لا شيء يملأ عينه ياسيدي.

أمر الطويبي بالسكوت. تقدم صادق العروضي معلناً التوبة. توعّد الشيخ بركات نديم المكشوح بعصبة صادق في الحارة التحتا. تقدم ابن نديم المكشوح معلناً التوبة والبراءة من أبيه ومن عصبته في الحارة الفوقا. فارت الحاكورة بالزوار أمام بيت طاهر من الفجر إلى العصر. قال صادق العروضي:

- علينا أن نطعم الناس ياسيدي. لا أحد يقطع هذه العتبة مصدقاً أم جاحداً حتى يدفع.

انتفض طاهر:

- خديعة جديدة؟ أين الشيخ بركات؟

- سرّ جديد ياسيدي. ولست بحاجة للشيخ بركات حتى يعلمني.

قال صادق، فأمر الطويبي:

- اتركوه. صادق يحسن التدبير.

- أنت لا تعرفه ياسيدي. أنا أعرفه من صغري. حتى التيوس كان يركبها.

قال طاهر، فنهره الطويبي:

- أنا من يعرف. لا أنت ولا سواي. لولا صادق العروضي من أين كان الزوار أكلوا وهم ينتظرون أمام بابك؟ ماذا حمّل واحدهم؟ ريال على الرأس؟ كان علف بغل التحصلدار يكلف الطويبة أكثر، أم نسيت؟

- لكنه ما كان ينفق إلا القليل مما يجمع. كان يخبئ لنفسه وللشيخ بركات معه.

- ولكَ كان يخبئ. لولاه ما كنت سمنت ولا تزنّرت بزنار كشمير.

- الشيخ بركات ألزمني بهذا. صادق نفسه قال: اخرج إليهم بهيبة الخضر. قلت له وللشيخ بركات: الخضر في القلب لا في الثوب. صار باب رزق.

- وما في ذلك؟ واحد ترك الحدادة والبيطرة والحراسة ولحق بك. واحد ترك تعليم الصبيان ودورته كل سنة في الجهات الأربع خلف الزكاة، ولحق بك. ما بقي لا لهذا ولا لهذا مورد رزق.

ضاق طاهر بالطويبي وبجلده. مشى إلى قبة المزار، وتبعه صادق.مدّ الشيخ بركات يده بالإزميل والمطرقة. خاف طاهر من العتمة. ضحك صادق وهو يضبط يد الشيخ بركات متلبسة بفعلها. نقر صادق في الجدار على قدّ القربة وهو يضحك. طارت القربة من سقف بيت إلى جدار مزار، وكبرت.

أفغمت طاهر رائحة المكان. مشى إلى البيت كما أشار صادق، وبصحبته. انقلب الوقت فجراً والشيخ بركات يملأ القربة. نادى صادق في الناس. زحفت النساء أولاً وهو يسقي ملء ملعقة العود من ماء الكوثر، ويكوم الريالات. ناشد الشيخ بركات الخضر، وقال حرداً:

أنا الشيخ لا أنت يا صادق. أنت من العوام. قال صادق: عند طاهر عوانة لا فرق بين شيخ وعامي. خبط طاهر على صدره وناح:

- هذا حرام.

قال صادق بانفعال أكبر:

- هذا هو الحلال ياسيدي. بهذا لان عناد المخاتير والشيوخ، وسمحوا لأتباعهم بزيارتك.

انتفض الطوبجي ونده:

- أين أنت يا طاهر؟ تعال. اغسل كل ما مضى. بكرة يصل الشيخ بركات ويزوجك رملة.

بوغت طاهر وتلجلج لسانه:

- عمري ما فكرت بالزواج ياسيدي. لا أريد أن أتزوج، لا رملة ولا غيرها، لا اليوم ولا بكرة.

- اليوم الطوبجي من يريد ومن لا يريد، أنت عمرك خلص.

- أنا ما مت ياسيدي. أنا حي فيك.

- تكذبني وتعارضني؟ كأنك نديم المكشوح أو مثل بقية الجاحدين! لو عاودت أخنقك كل يوم مائة خنقة. انهض واحلف أمامي مثلك مثل كل من حلف. ما بقي لك ولا لسواك إلا يمين واحد في العمر. ما عدت أميزك عن أحد. والويل لك لو سولت لك نفسك بالمروق. بكرة ترى ما يفعل الطوبجي بمن ما صدقوا أنه غاب حتى أنكروا يمينهم، وأداروا ظهورهم.

انصاع طاهر وأقسم، لكأن صادق العروضي بالباب، يتلقف الريال كما يتلقف الشيخ بركات من دفع، واحدهما يأمره أن يقبل

العتبة، والآخر يأمره أن يقبل أنملة من الطويبي أو طرفاً من ثوبه الفواح، ثم يدعانه يلوب في أرجاء البيت معاهداً على الكتمان، ومؤملاً ظهور الخضر. غير أن الخضر لا يظهر إلا للصالحين. والتابع الجديد ينكفئ - كما ينكفئ طاهر الآن - إلى أعماقه، يجلدها كي تتطهر، ينذر نذره ويخرج راغباً وخائفاً. وعندما فعل طاهر ضاءت نافذة رملة، فارتدّ إلى البيت.

3

بلا طعام أو كلام أو نوم مضى ذلك اليوم، وأوشك اليوم الثاني أن يمضي، لولا أن رملة نادت عصراً. هرع طاهر إلى الباب، ولما لم يجدها لحق بالصوت حافياً حتى غدت النافذة قبالته. فجأة انبهرت عيناه وهمّ بالفرار، إلا أن رملة أومأت بالانتظار. أسند ظهره إلى الجدار المجاور. وقبل أن تصل كانت قدماه قد جرّتاه إلى الأرض، ولبث مكوماً إلى أن رفرفت فوقه محيية، ثم قرفصت تسأل:

- مابك؟ أين كنت؟ كيف خرجت حافياً؟

- كأني سمعت صوتك.

همس مناجياً.

- من البارحة وأنا أناديك.

قالت غنجة، ولفحته برعشة دافئة. رفع رأسه صوب النهر. ضاع النهر في الأفق، وضاعت رملة، وأوشك صوته أن يضيع، فأسرع يهدر:

- طاهر عوانة مات يا رملة.

تصنعت الحرد قائلة:

- لا أحب هذا المزاح.

قسا صوته وهو يندفع:

- من اليوم أنا الطويبي. الطويبي لا يمزح. طاهر عوانة نفسه ما كان يمزح. إذا كنت تريدينني فأنا الطويبي.

تهدج صوتها وهي تتمتم:

- كيفما تسميت أريدك.

سأل بحياد:

- أنت على أي دين يا رملة؟

- أبي مسيحي وأمي مسيحية. أبي وأمي هنا في قلبي. وأنا أيضا بنت هذا الرجل الكريم. نشأت مسلمة. كنت أظنك تعرف أو تقدر. لماذا تسألني؟

- حضري نفسك. خلال أيام قليلة نتزوج ونرحل.

قال وهو ينهض، ثم تابع يبتعد:

- أنا جائع.

حاولت أصابعها أن تلحق به، ثم كلماتها، لكنه سرعان ما اختفى. وقدماها تتراجعان مبهوتتين، مصدقتين ومكذبتين في آن.

بعد قليل أخذ الهدوء والصفاء يغمرانه،فمضى إلى السوق مدندناً. ولما قفل بما يكفي لإطعام ثلاثة جائعين، بدا نشوان بعجب كل من صادف، وصدى همساتهم يحدو له:

- هذا ليس طاهر عوانة.

أقبل يهيئ المائدة بأناة ويدندن مكذباً جوعه، حتى قرع الباب، فأمر:

- ادخلْ ياشيخ بركات.

انفتح الباب بحذر، فكرر طاهر الأمر. اندفع الشيخ بركات يلثم جبيناً وكتفاً، ثم يداً وركبة، ولم يكن قد فعل من قبل إلا أن يكون معهما ثالث، ليس بصادق العروضي.

- سيدي.

هتف الشيخ بركات ضارعاً، فأمر طاهر:

- الطويبي. نادني باسمي.

تراجع الشيخ بركات متأتئاً:

ياسيدي: ما أدراك باسمك؟ ما أدراك بقدومي؟

- يا حيف! الشيخ بركات يسأل. منذ صغري سمعتهم يقولون: إيمانه ضعيف. لماذا تأخرت؟ اجلسْ لنأكل. حضّرت لك بنفسي هذه المائدة.

حرك الشيخ بركات شفتيه لكن صوته احتبس، فتبسم الطويبي وقال:

- العفو تأخر مثلك.

جحظت عينا الشيخ بركات، فضحك الطويبي عالياً وقال:

- هات الألف ليرة قبل أن تخرج روحك من دبرك، لا تبحلق بي هكذا.

هوت نظرت الشيخ بركات فوق الطبقين الكبيرين، وضاق صدره برائحة السمن. مدّ الطويبي يده بطاسة الماء. كرع الشيخ ما في الطاسة وتنهد، ثم أطلق نجوى قصيرة للخضر، مزّق الطويبي رغيفاً كأنه لم يعد حقاً طاهر عوانة، وراح يلتهم ما في طبقه كأنه رجلان يفعلان، أو كأنه يلتهم حصتين معاً. أسرع الشيخ بركات إلى طبقه قائلاً:

العفو في طريقه إلى الرقة. أخرته قليلاً عودة الكابتن آلان. ما استطاع صادق أن يرضيه إلا الخميس الفائت.

ابتعد الطويبي عن المائدة. حرنت اللقمة في حنك الشيخ بركات، استعان بالماء وبالحمد، وكاد يختنق في بلعته. أسرعت أصابعه المرتعشة بالألف ليرة الملفوفة كالماسورة.

- كم ماسورة مثلها كان نصيبك في غيابي؟

سأل الطويبي مداعباً، فاختلجت وجنتا الشيخ وهو يقول:

- ماسورة واحدة، وحق ..

قال الطويبي مقاطعاً:

- لا تحلف. لا أحد منكم يحلف بعد اليوم، لا صادقاً ولا كاذباً. بلغهم عن لساني فور عودتك. يكفي أن تحلف مثلاً بهذه الطاسة. وفروا على نفوسكم الذنوب. الطاسة لا تحاسبكم. الله شديد

الحساب والعقاب، يمهل ولا يهمل. وصادق العروضي كم ماسورة كان نصيبه؟

- لا أعرف. أنت أدرى بطمعه مني.

ضحك الطويبي وقال غامزاً.

- في غيبته معي هنا صلتَ وجلتَ على هواك.

- الخوف كان ذابحاً ياسيدي، والحزن. مليح أن غيبة صادق ما طالت. أنا أنرت بيتك في الليل حتى أقوي عزيمة الناس. قلت لهم سيدي يزور الطويبة كل ليلة. طلبت منهم أن يفوا النذور وينذروا.

- ومن النذور وحدها لففت ماسورة.

- ياحسرة. ولا ربع ماسورة.

تشامخ الطويبي وتلاعب ذراعاه ثم قال:

- سامحتك بما فات. صادق أسامحه أيضاً. بعد هذا لنا قول ثان. نمْ الآن، وفي الغد تروح معي إلى بيت بنت حلال قربنا. أريد أن أتزوجها.

واستلقى هانئاً ومطمئناً.

أطفأ الشيخ بركات القنديل، وغدا لسانه أجرأ. أنصت الطويبي قليلاً ثم تظاهر بالنوم. سكت الشيخ، وما لبث أن شخر. أدار الطويبي له ظهراً، وفكر في أن ماسوف يلزمه بعد اليوم كثير. لا بد لصادق العروضي والشيخ بركات أن يجمعا الريالات. لن يثقلا على الناس ولن يغفل عما يبلعان. كرر ذلك مهدداً. ودعك جفنيه بقوة. تسلل طاهر عوانة من الجفنين مشككاً. أدار الطويبي ظهره لطاهر يمزق رسالة صادق العروضي، كأنه لم يفعل قبل أن يهب إلى السوق.

رمى طاهر بمزق الرسالة في حضن الشيخ بركات. تقلب الطويبي مغيظاً. همس طاهر كاتماً ضحكته:

- كدت تضيع صواب هذا المسكين. جعلته يعتقد أنك تكشف الغطاء وتقرأ المستور. غداً يسبقك إلى الطويبة ويقول له صادق: أنا كتبت وكتبت.

قال الطويبي وكفّه تحزّ على رقبته:

- إذا نطق صادق بحرف ألحقته بك.

ونهض يبحث عن طاسة الماء، ثم فتح الباب برفق، وخرج حافياً يبحث عن نافذة رملة. ولما عثر عليها معتمة ومغلقة مضى إلى النهر.

4

شعّ نور باهر للحظة ثم انطفأ. ربما كان لسيارة مسرعة إلى دير الزور، أو للوكس حارس الجسر. لكن الطويبي رأى فيه النور الذي أطلق صادق العروضي - كما قال الشيخ بركات قبل أن يشخر - في أنحاء الطويبة. دوّم صوت بعيد: كل ليلة تسطع ناحية حتى لا ينسى أحدٌ من في المنفى. تململ الطويبي حيران في فطنة صادق العروضي ووفائه. دغدغت الرطوبة باطن قدميه، فتقدم من النهر يشكو ما ورث من طاهر عوانة. تلوى النهر مشفقاً عليه من الإرث الهائل. تقدم خائفاً من أن يعجز كما عجز طاهر نفسه، فاضطر إلى أن

يستعين بالشيخ بركات وصادق العروضي وأنوار سبعة. هبت نسمة باردة تسأل له معيناً، فرفض للحظة ثم تمدد.

لحست موجة باطن قدميه وهي تنسحب، ذُعرتْ القدمان وارتدتا فتربّع، شعَّ نور باهر وسع صفحة النهر. تمعّن في بؤرة الضوء فإذا بصادق العروضي الجديد يطلع من صادق العروضي القديم، ويمشي على صفحة النهر ملاقياً الشيخ بركات الجديد الذي كان يطلع من الشيخ بركات القديم. بعد قليل تناثر على الضفة الأنواع السبعة الجدد وهم يطلعون من الأنوار السبعة القدامى. تململ الطويبي في قعدته وقد ابترد قفاه. شرع آخروه يطلعون من آخرين، كما طلع هو من طاهر عوانة، أفرد ذراعيه ملاقياً أحباءه القادمين. هلل للنور الذي ملأ الآن الكون، وقف يطل على عالمه الجديد طافحاً بالرجاء والعزم، تبصّر في الموجات التي كانت تهدهد على صدرها الفاتن ذلك العالم. كانت الموجات تومئ أيضاً إلى أعماقها، مثل عيني رملة.

زحف قليلاً وترك قدميه تداعبان الماء ثم تغطسان. صارت الموجات ألسنة صبايا يلثمن ساقيه وركبتيه. أغمض عينيه فامتلأتا بالزرقة ثم انفتحتا على عالم آخر يضيق به قرار النهر. أخذ العالم يتصاغر، تتقاذفه الوديان والجبال والأنهار والبحار، وقامت الطويبة.

خفق بذراعيه متعالياً والعالم ينشطر في قلبه منذ مولده حتى موته، ومنذ موته حتى بعثه الآن. كان نديم المكشوح قد أخذ يقود الحارة الفوقا، والشيخ بركات يقود الحارة الوسطى، وصادق العروضي يقود الحارة التحتا. وملء كل شطر أو حارة راحت الأجساد تتراصّ: الإخوة

والأعمام والأصهار والأخوال، أما النسوة فبدون يتشظين كما كانت تتشظّى لحمة العشيرة والديانة والجيرة والقرابة. انفرد الطوبيي غريباً كما كان أبواه. تطايرت الشظايا والأشطار في الفضاء الذي ما عاد مضيئاً، أصاب الهلع مخاتير وشيوخ ومرابعين وملاكين وموظفين. ارتجّت الناحية، فالقضاء، فذلك العالم الوحشي الصغير المزجوج في قرار النهر والروح. أقبل الخضر بمعجزة تسابق معجزة. سجد الطوبيي فغرق، وشرعت الأشطار تلتئم، والشظايا تتضامّ وتنصهر. ولما اكتمل خلقها الجديد نهض الطوبيي من سجدته وخرج من الماء.

إبان ذلك كان نديم المكشوح يزداد عناداً، يرفض ما يعرض طاهر عوانة، فيما سواه من مقدمين أو شيوخ أو مخاتير أكبر عناداً وجاهاً، بدأوا يلينون. بين يدي طاهر عوانة نفسه لان آخرون من غير أن يلقم صادق العروضي ولا الشيخ بركات جبياً ولا فماً. هكذا حرّم مدير الناحية على نفسه العرق، الدخان، وبعد حين قصير حلف اليمين، وبات مضرب المثل في التوبة والكتمان.

سدّ معوض أفندي أذنيه عن شكاوى نديم المكشوح. صارت الشكاوى تنال مدير الناحية نفسه من مركز القضاء إلى المحافظة. كانت مثل صاحبها تبكي مجداً ينهار، وتضرب الضربة الأخيرة.

وكان طاهر عوانة يتلمس اللحمة الغضة، ومعوّض أفندي يؤمر بالتحقيق فيجيب: لاشي، وينغرس في الأمان الذي وفّر لنفسه وأسرته مذ ناصر الفرنسيين على الثوار، فنصّبوه مديراً للناحية.

كان لابد لنديم المكشوح أن يسكت. ولئن جدّ صادق العروضي بالقتل، فقد حكم طاهر عوانة بالمقاطعة، ولم يعد ابن نديم المكشوح

يكلم أباه. لم يعد يجد من يركش أرضه. حتى الدرك الذين استبشر بنقل مخفرهم إلى الطويبة، صاروا يحذرونه من العاقبة.

بعد الدرك تسلّلت العيون إلى الطويبة، ولئن كشف معوض أفندي لطاهر بعضها، فقد خفي عنه منها كثير. لعن طاهر الحافظ والكابتن آلان والقائمقام الذين لم يعد تكفيهم تقارير معوض أفندي. تخفّى صادق كما تخفّت العيون، ثم ظهر يضيف إلى من سمّى معوض أفندي خمسة ممن قبّلوا العتبة وأقسموا ونقدوا الرايالات بسخاء. وعلى الرغم من أن الشيخ بركات سخر منه، وطاهر نفسه لم يأبه، فقد استطاع أن يقنعهما بالتوقف عن استقبال الزوار، وإيكال ما كانوا ثلاثتهم يقومون به للأنوار السبعة.

بعد حين فكر طاهر في أن ذلك لا يفي بالثقة في كل وقت وعلى كل حال، وحسب، بل هو يجلو الحلم القديم الجديد الجلي المبهم عن هيئة لها رأس وجذع وأذرع وجذور. ولعل الطويبي كان عندئذٍ سيطلع من طاهر، وطاهر يزور مخاتير وشيوخاً ومقدمين وموظفين، ممن يناصرون نديم المكشوح.

لكن الأمر صدر بحضوره إلى مركز القضاء مرة كل أسبوع، ليجدد التعهد أمام قائد الفصيل بالكف عن أي فعل يثير الناس.

عندئذ فكر في أن مقاطعة نديم المكشوح وحده لم تعد كافية، فحكم بالامتناع عن الفلاحة والبذار، وتعلل بعلبة البرغل التي تطعم مائة من الزوار، والحفنة التي تكفي ابن آدم ما عاش.

قال معوض أفندي:

- هذا ما يسمونه في المدن بالإضراب. العمال يضربون، نعم. الموظفون، الطلاب، التجار، أما الفلاحون؟ هذا جديد علينا!.

وسأل الشيخ بركات:

- لِمَ يشقى ابن آدم في هذه الدنيا الفانية؟

وقال صادق العروضي:

- من يصبر منكم فهو من يصدق عهده.

وجرى الخوري مطانيوس من مركز الناحية إلى الطويبة يصيح:

- هذا جنون. هذا خراب.

وصاح عبد الحليم آغا الذي تربو أملاكه على نصف الناحية:

- يلعن أبوكم من كبيركم إلى صغيركم. ورب الكعبة لأخرب بيوتكم.

ربما كان الطوبيي ثانية سيطلع من طاهر، والحلم يكبر ويتجسد، لولا أن الخوري امطانيوس استقوى بالمبشرين الفرنسيين وبالكابتن آلان، وعبد الحليم آغا استقوى بالمحافظ، وربما برئيس الحكومة، فخاف معوض أفندي، وأصابت عدوى خوفه الشيخ بركات فصادق العروضي، وبعد قليل: طاهر نفسه، وبدأت مكادس الحطب تحترق، والتنانير تنهدم.

كان طاهر قبل ذلك يعنف الآخرين على خرعهم، وكان قد أمر: لا تشتروا من أحد ولا تبيعوا. قاطعوا الجميع: أقرباء وغرباء، حتى يكفوا أذاهم ويأتوا مستغفرين. لكن الأذى تضاعف والمناوئون، غيرةً على ما يعتقدون أو بأمر عبد الحليم آغا والخوري مطانيوس، راحوا يكسرون الخوابي، ينتفون شعور الصبايا، والفؤوس والمناجل

والعصي شرعت تتعارك. وحين خرجت البوارید من مخابئها قُتِلَ جدُّ صادق العروضي الذي كان يقف على حافة قبره منذ السفر برلك.

حضر الكابتن آلان على رأس حملة كبيرة ودوى الرصاص. وفي بيت نديم المكشوح - حيث نزل الكابتن والمستنطق وآخرون - تعالت الأيمان منكرةً أن يكون لطاهر عوانة أو صادق العروضي أو الشيخ بركات ضلع فيما جرى.

قال أحد الأنوار:

- الملاكون لا يتركون لنا ما يملأ البطون.

وسأل صهر الشيخ بركات:

- ما الفرق بين أن نفلح أو لا نفلح؟ نبذر أو لا نبذر؟ نحصد أو لا نحصد، مادام كل شيء يذهب إلى عبد الحليم آغا؟

وقال ابن نديم المكشوح وهو يشهر كفه في وجه الكابتن، وربما في وجه أبيه:

- أعطني ياسيدي ما أشتري به. من أين لي أو لغيري ثمن كيلو ملح؟ ماذا عندي أو عند غيري حتى نبيع؟ نحن ما قاطعنا الشراء ولا البيع، ولكن الحال كما ترى.

أكبر طاهر عوانة مكر الجميع. وما كاد الكابتن ينسحب بالحملة حتى تلبدت السماء الصاحية، وشرعت منذ العصر تصب المطر صباً. وقبل أن تعتم انقضت صاعقة على بيت نديم المكشوح، فدمرت الحائط الغربي، ورددت الطوبية صدى انتقام المنتقم الجبار، كما هددت الكابتن آلان بصاعقة أكبر.

أغفى الطوبجي الآن على حافة النهر، كما أغفى طاهر عوانة ذلك الشتاء. وعندما أفاقا كان الصيف يعجل، بلا ربيع وبلا مواسم. وكان كثيرون يحنثون بأيمانهم، ويهرعون إلى عبد الحليم آغا أو إلى الخوري امطانيوس أو سواهما.

سبق طاهرعوانة إلى الخوف هذه المرة، وأصاب بعدواه الشيخ بركات ومعوض أفندي وصادق العروضي وثلاثة من الأنوار. ثار الطوبجي وعنّف طاهر وحده على خرعه، ولعله كان سيطلع منه، لولا أن الحملة الجديدة لم تفسح له، على الرغم من أن قائد الفصيل وطبيباً يقودانها، وليس الكابتن آلان.

كانت المباغتة الأولى أن الحملة نزلت في بيت صادق العروضي. ثم قيل إنها حملة طبية تتفقد صحة البشر والدواب. وعلى الرغم من أن طاهر عوانة لم يطمئن، إلا أنه أولم في الظهيرة التالية، وأنس للطبيب. وأصر على أن يمشي في ركاب قائد الفصيل، وخلفهما كان صادق العروضي ورئيس المخفر يتمازحان، وخلف هذين كان آخرون يختلطون بالدرك.

فجأة اختفت الطوبية وانقض الدرك وقدحت الحصى تحت حوافر الخيل، وشبّت الدرب وهوت، وطال ذلك حتى أمر قائد الفصيل بالهدوء، فاستأذن دركيان بامتطاء طاهر عوانة وصادق العروضي.

نهض الطوبجي صامتاً. أدار ظهره للنهر ولذلك العالم، وسار الهوينى نحو البيت ملاقياً الأضواء الشحيحة الساكنة، باحثاً فيها عن نافذة رملة. ولما أدرك النافذة استبطأ قدميه، وفكّر في أن عليه أن يهيّئ للأيام القادمة مثل المكر ومثل القسوة اللذين انتصر بهما خصوم

طاهر عوانة، فمن دون ذلك لن تكون معاركه القادمة أفضل من معارك ذلك الذي دفن في قرارة النهر. وودّ لو أن الوقت يتبدل حتى يسأل رملة الرأي، ليس في هذا وحده، بل بكل ما يمور في صدره.

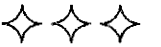

طيف العرش

1

أججّ اللهفة للطويبي ما أشاعه الشيخ بركات إثر عودته، وعمّق نسيان طاهر عوانة. ولما تأكد العفو عصف الهياج بالناس، وتدافعوا إلى صادق العروضي بأثمان ما يبيعون كيفما اتفق، كي يقام للطويبي العرس أيضاً. وليس فقط الاستقبال الذي يليق بمن لم يفته في غيابه أمر.

فرحين كانوا ومنتصرين، وخائفين أيضاً ولو قليلاً. كان بوسعهم أن يركضوا تحت المطر الدافق، يدبكون ويغنون، يستزيدون الريح عصفاً وبرْداً، يلوثون ثيابهم بدماء الذبائح، يطاردون بنات آوى وأبناء عرس، يوقدون النار فوق القمة المروسة بالصنوبر ويتصارعون، ينوحون في المواويل والصلوات، يتهجدون ويشتهون، ولا يدرأون قدراً.

كانت ثقتهم بخلاص مبهم وعميم ومحتوم تغدو راسخة مثل أي من الشواهد الأزلية القائمة في كل مكان. إنه الخلاص الوشيك الذي سوف يرفع الرؤوس المحنية أمام جيران أو ملاكين أو حكومة أو فرنسيين أو مجهول، ويملأ صدورهم بالرجاء أو الانتقام أو الغفران.

كان الشيخ بركات يلهم دخائلهم من أمام المزار الذي لازم منذ عاد من الرقة مصعوقاً. وكان صادق العروضي يتصاغر أمام سرّ رسالته. كانت الرسالة تنسج له عرى جديدة ووثيقة مع الطويبي الكامن في طاهر عوانة. أما الطويبي فلبث في الرقة رهين الدوار الذي تواتر أقوى منذ انتقلت رملة إلى بيته حتى وصل العفو.

كانت الرجفة تعروه كلما سكنت إليه رملة متشهية وخائفة، وهو يدفع الأشباح المداهمة، لا يكاد أن ينتصر عليها ويمسك برملة التي تكون قد أغفت بلا سروال، حتى تعود أكبر روعاً: أثداء متطاولة، فروج تنكمش من اليمين إلى اليسار، وبين أسنان الغيلان منها لا زالت نتف الأطفال أو الحملان عالقة.

كانت الأشباح تتناهب البيت: الإناث منها ترمي أثداءها على ظهورها الحدباء. الذكور تشرع قضباناً ينوف أصغرها على الحورة الطولى في وادي الطويبة. كان الطويبي يندفع مرة بعد مرة، يضرب فيقتل، ثم يضرب فيحْيي، ويطير من رأس صنوبرة إلى رأس، ومن قاع إلى قاع، حتى ينجو وتنشلع منه يد صوب رملة، فإذا بالنهر يهجم على البيت، والبحر يلحق بالنهر، والماء يدفق من كل صوب، والفراش يطفو، والغرق يغدو محتوماً.

حينئذٍ كانت رملة تنقلب عليه، وتكون السفينة قد وصلت، فينطلق بها عالياً، والماء يهجم، والنجاة تستحيل لولا أن رملة - أو أمرأة أخرى - تلتحم به وقد نترت سروالها.

باليد المشلوعة كان يبدأ بدفع المرأة، وابليس الذي سكنها كما سكن زوج نوح عليه السلام يدفعه. كان ابليس يخرب السفينة مرة بعد مرة، الآن كما في الأمس، والطويبي ينسى ما تعلم صغيراً وكبيراً: المرا فاقوسة ابليس، وابليس يصيح: أنا بعلّم الرجال وبتعلّم من النسوان، ثم يخرب السفينة، فيصارعه الطويبي حتى يصرعه، وتستوي

السفينة على قمة مروسة بالصنوبر، ويكـون حـداء: النسـاء شـقائق الرجال. ويندفع الطوبي: ينزح حفنة تراب معجونة من قاع السفينة. يأمر رملة - أو تلك المرأة - فتباعد فخذيها. يحشو الرحم الفاغر. يأمر الرحم أن يلفظ حمله قبل أن يكمل شهره التاسع. يبكي وليـد حتـى يحمله الطوبي إلى دغل نسيه الطوفان. يلقن الولد سراً ثم يؤوب إلى ثدي رملة أو إلى ثدي تلك المرأة. يلتقم ثدياً فإذا بالوليد يلتقم ثدياً. يرضع الثديان الأب والابن طوال الليل، وروح القدس ترعاهما. وفي الأعشاش التي بنتْ أزواج الحمام فوق عتبات البيوت الخربة، يمضـي الطوبي نهاره، ويرفض أن يتزوج امرأة أخرى.

لكن الآباء والأمهات يسوقون إليه بنات وأقماراً، فيرق، ويسـتأذن رملة -وحدها - في أن يطير مع حمامـة جديـدة. وعندمـا يرتـوي مـن الحليب والطيران يموت، كما يموت ذكر الحمام: تلدغـه حيـة، تصيبـه خردقة، تعلق أظافره على قضيـب دابـق، ويـهفو الرجـال إلى أرملتـه ليتبركوا بها ويكملوا دعوته. إلا أن الحمامة الوفية لا تدع ذكراً يطأها بعده، فتهدأ أنفاسه وينام.

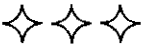

فجر اليوم الثالث لوصـول العفـو - والسـابع لزواجـه ورجـوع الشيخ بركات - غامر بروحه، وقطع النهر. وكما وقف على الضفـة الأخرى يلوح، وقفت رملة الباكية، ثم تقدمها صامتـاً، يـردع العيـون البعيدة التي تشيّعهما.

كان يبدو كأنه يتعلم المشي الآن. وخلفه رملة تتقافز مثل حبات الرمانة التي ألقاها أمير المؤمنين منذ ألف عام، والفرات يشبح من ضفة إلى ضفة، على الرغم من أن الوقت ليس للفيضان.

غير أن الرمانة هائلة. حبها يضيء وينفرش جسراً فوق النهر. والمؤمنون الناجون يندفعون. الطويبي يندفع. رملة تندفع. الأفق الأشهب يلوح بقبضة من الحب، تصغر وتتكسَّر، تُسيل اللعاب وتُجفل الأضراس، تجري في العروق وتصدح بالنداء: يا أهل الرقة، مقيمين ومنفيين: إن نهركم هذا يصبّ إليه ميزابان من الجنة.

بعيد السحل أخذت رملة تشوش النداء. التقط الطويبي رمانة من السماء وأمر: اهرسي. دعست العروس. تبقعت القدم بلون لم يُسمَّ بعد. تناثرت حبات سالمة ومكسرة حول العروس. أمر الطويبي: هيّا عجّلي. انحنت العروس والتقطتْ بأناة من الحب وراحت تنثره فوقها. اطمأن الطويبي إلى أنها سوف تنجب بنات كفلقات القمر. تقافزت رملة أمامه وراح يجهد كي يلحق بها. وقبيل الظهر كان نداء أمير المؤمنين قد ضاع. وساقا الطويبي كلّتا، فبدأ يعنّف نفسه ويعنّف رملة، وبدأت تضيق به ويضيق بها. ولما أعجز كل منهما صاحبه جرت هي إلى النهر، وصاح هو. ألهب الصياحُ الجريَ، وأطلق نداء رملة لأمها ولأبيها ولأرمن غرقى ومذبوحين وتائهين مثلها. انطلق الطويبي شاتماً الخلق أجمعين وأشهر كفّه. لبطت قدمّ رملة والكف تتحرر. استجارت رملة بطاهر عوانة فانهالت الكف عليها.

أنشبت أظافرها في وجهه وثوبها يتمزق. تبقع الوجه والثوب بالدم، وفي منبت النهدين تناثرت البقع مثل حبات الرمان المهروسة.

اندفع لسانة يلعق، وزئيره يشق النهر ويأتي على الثوب إلى منتهاه. أبرق الثديان مثل رمانتين مشقوقتين للتو. التقم حلمة فحلمة، ورملة تهمد. صار - وعضوه يسبقه- وحشاً هائلاً وجريحاً يلجأ إلى غابته السوداء، يعوي في أحشائها، ورملة تتلوى لكأن الموت يدركها أو يغادرها. ولما سقط الطوبيي من عليائه أنَّ وأنَّتْ، ثم تحامل على عرائه وتحاملت، وتكوما صامتين وأليفين.

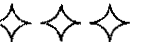

بقية النهار اختالت الطريق بهما ورشتهما بمسك حوافّها. وفي العتمة التي أسرعت تدثرهما، انتحيا وهدةً معشبة، وهتف الطوبيي:

- أحبك يا رملة.

فهتفت:

- وأنا أعبدك.

أبعد الزوادة وضمّها. تناولت هي الزوادة وأبعدته. ومثل زوجين من أفراخ الحمام راحت تزقّه وراح يزقّها، واللقمة تصغر وتقطر لذاذة، حتى طلع القمر، فانحنى يلاقيه، وانحنت تنشد ألماً مضاعفاً بين ساقيها.

على النقيض مما كان في منتصف النهار شهد الليل - في أوله ومنتصفه وآخره - على الطوبيي يضاجعها برفق، وشهد عليها تضاجعه برفق، يرتعشان معاً، يغفوان معاً، يفيقان معاً، والقمر

يدثرهما، والنجوم تزقزق لهما مثل العصافير الخفية التي نادتهما أخيراً إلى المسير.

لكن رملة وقد طلعت الشمس فجأة - أوقفت سيارة. ونَقَدَ الطوبجي السائقَ الأرمنيَّ آخر ما تبقى في جيبه، بعد أن أتى المهر والذهب الذي تتزين به رملة على ماسورة الشيخ بركات، وعلى البقايا الخبيئة من أجر المطحنة.

عادت الطريق وهي تُنْهَبُ، تختال بهما، ترشّ المسك، تقصّر العرس عن الأمس، إذ بلغت حلب قبيل الظهر. وعرّت رملة معصميها من المبرومتين فوراً.

امتلأت جيب الطوبجي من جديد فنادى الطوبجة. أسرعت إليه سيارة أخرى، وراحت لهفة رملة تسابقه وتسابق السيارة. كانت المنعطفات والمنحدرات تتطاير في أنحاء الغابات التي أخفت الطريق، كما أخفت الشمس، إلى أن سطع البحر.

شهقت رملة وأكبّتْ تتشمم. تبلل خداها بدموع وضحكات وهي تتعثر بصراخ السائق:

- تفضلوا انزلوا.

اندغمت بالطوبجي خطوات قبل أن يبعدها ويسبقها. تقافزت خلفه مثل عينيها اللتين أخذتا تتقافزان بين المنارة والمراكب والنوارس. بدا تائهاً حتى أوقفته بوابة الخان الصغير. توقفت هي قبل خطوتين تخمّن ما يدور بينه وبين المكاري. تابع سيره دون أن يلتفت. أسرعت تلحق به فلم تقدر إلى أن ظهر مقام الشيخ خميس

واقترب البحر. أسند ظهره إلى عمود دفأته الشمس الربيعية. تنهدت وهي تلجأ إلى العمود التالي، وتساءلت:

- أين نحن؟ أين الطوبية؟

لم يرد. ولعله لم يسمع. كان يوحّد صفحتي البحر والنهر الرقراقتين. وعندما تمّ له ذلك تابع المسير ملاقياً مصب النهر في البحر، وهي تعدو خلفه. كانت المآذن والصبارة المسوّرة للطريق والغيوم البيضاء تلهي رملة عن عنائها ولهاثها. وكان المصب يلهب دم الطوبيي كلما اقترب منه، وتيقّن من انجلائه عن رملة ثانية أحلى وأكبر وأقوى. أخذ المصب يبتعد، ورملة الثانية تصير البحر، والنهر يصير قطعة من الطوبيي الذي ملأ ما تبقى من الكون.

اندغم النهر في البحر بعد قليل، مثلما اندغم الطوبيي برملة نهار أمس وليله.

شهق النهر والبحر بعد قليل، فشهقت رملة وشهق الطوبيي. غاب النهر والبحر وأوشكت الشمس أن تغيب، وظهر المكاري أمام بغله. قال الطوبيي مشيراً إليه أو للبغل:

- بعدما ينصرف تلبسين الفستان الجديد.

تلمست الصرة التي تحتضن، وأبرقت الألوان ملء حلب، وتابع الطوبيي وهو يشير إلى الأنحاء جميعاً:

- قولي: وصل الحصان، صادق العروضي يسبقه، والشيخ بركات يلهث خلفه. من هنا يندفع القوم بعد قليل، الطبول، والزغاريد. هذا عرسي يارملة، لا عرسك. امشي خلف الحصان، على رأس

القوم. لا. الشيخ بركات وصادق يتبعان الحصان. من هنا تقدمي أنت موكب النساء.

كانت قد وقفت والبغل يقترب منها. توقف الطويبي يصغي للمكاري. غابت الشمس والمكاري والبغل، وخافت رملة، فنهرها الطويبي، وأمر المسالك أن تنطوي، والوعر أن ينمهد، والحصان الذين لم يتأخر من بعد أن يطير، والقوم الذين انشقت عنهم الأرض والسماء أن يلحقوا بالحصان. وفيما كان أمره ينفذ تراخت قبضته متلذذة ومستزيدة من الدبكة والغناء والتهليل والذبائح والنيران، ولم تتكور حتى ارتوى من اللحم المسلوق واللبن، وخلا البيت، وسعت رملة إليه هاتفة: شبيك لبيك عبدتك بين يديك.

2

أقلقت أصداء العرس القائمقام والمحافظ، فطلبا منه ومن مخاتير وشيوخ ووجهاء كثيرين أن يحضروا إلى مركز القضاء.

قال الطويبي:

- بدأت المعركة.

وردد الناس خلف صادق العروضي:

- الحكومة تريد أن تحتفل بعودة الطويبي.

قال القائمقام - إذ لم يحضر المحافظ - وعيناه لا تغادران الطويبي:

لا تخريف ولا تدجيل بعد اليوم. لا شغب لا نصب ولا احتيال. بعد اليوم ما عادت تكفيني المحاكم. ما عاد يكفيني حبس واحدكم، ولا النفي. بعد اليوم ما عندي لكم غير هذا.

وخبط جنبه خبطتين فوق المسدس.

عاد الطوبجي ضاحكاً، ونقل صادق أمره إلى الأنوار، فأمروا الناس:

- البدوا حتى تأتيكم الإشارة.

وقالت رملة عشية ذلك اليوم:

- هذا البيت عتيق وضيق.

رسمت شفتا صادق الابتسامة التي حرص عليها كلما لاقى رملة، وقال:

- عدّي: ثلاثين يوماً. في اليوم الثلاثين تنتقلين إلى بيتك الجديد. ما قولك: غرب السنديانة، مليح؟

- تساءل الطوبجي؟

- وهذا البيت؟

قال صادق:

- مزار للطوبية.

سأل الطوبجي بجفاء:

- والمزار القديم؟

قال صادق مدلاً بذكائه:

- نسكّر بوابته. المزارات القديمة كلها نسكّر بواباتها وطاقاتها. هذا البيت يصير مزارنا الوحيد.

أطرق الطويبي يفكر، وصادق يتغامز، فزجرته نظرة رملة، ثم أطرقت. وعندما رفع الطويبي رأسه، ورفعت رأسها، تساءلا معاً:

- أين أنت يا صادق؟

سأل الشيخ بركات داخل قبة المزار القديم:

- هل تظن أن الناس تسخو من أجل البيت الجديد؟

قال صادق العروضي باستعلاء:

- لا تنشغل بهذا. ما عليك إلا أن تحرضهم على السخاء.

قال الشيخ بركات متشككاً:

- كأنك بعد رجوع الطويبي تريدني أن أبعد.

قال صادق هازئاً:

- أنت حبست نفسك في هذه القبة من يوم رجوعك من الرقة.

حاص الشيخ بركات وهو يقول:

- ما تحاسبنا بعد على ما جمعنا لاستقبال الطويبي. ألا نخلص من هذا قبل أن نبدأ بالبيت الجديد؟

قال صادق بحزم:

- ما بقي ما نتحاسب عليه. صرفنا الكثير. ومصروف الطويبي بعد عودته كبر. حتى الألف التي ماتزال في عبّك يمكن أن نحتاجها.

قال الشيخ بركات:

- اقبض كفك. بعدما تركتك وحدك تقضي وتمضي، صرت تكبّ المال كبّاً.

انصرف صادق غير آبه، وفكر وهو يلتفّ على الدرب شرقي بيته في أن الشيخ بركات ليس وحده من يحول دون ماعزم على أن يبدل في نفسه، منذ جازى المكاري على بشارته بعودة الطويبي. إنها رملة أيضاً. وقد يكون أسعده أن ينأى الشيخ بركات قليلاً، ويحبس نفسه في قبة المزار. لكن رملة تستحوذ يوماً بعد يوم على الطويبي. كيف أخطأ إذن وسبق رغبتها ببيت جديد؟

توقف أمام مكدس الحطب يسترق النظر إلى بيت الطويبي البعيد. تململت نفسه تطالب ببيت جديد لها هناك، قبالة بيت الطويبي الجديد. تجاوز المكدس وشفتاه تعدان ما ادّخر خلال سنين. تاهت الشفتان فتاهت القدمان وتعثرتا بالدباقة المهدومة بين المكدس والبيت، وسقط على الحصى والشوك اليابس، ونبح كلبه نبحة واحدة، فتنابحت كلاب الجيران، وتدافعت في كل الجهات، وكان الوجع يعجزه عن النهوض.

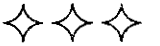

تماثل البيت الجديد للناس علامة كبرى وراسخة، فجادت الأيدي بما لم يكن أحد يأمل. وفيما كان الشبان يتناوبون على حفر الأساس، مرض نديم المكشوح. وسرعان ما تردد أنه يودع الدنيا، وأن الشيخ بركات أَذِنَ لابن المريض أن يعود أباه.

كان الشيخ بركات قد أخذ يغادر المزار كل حين، يتردد على السنديانة، يستثير نخوة الشبان ويتزلف لرملة، يجمل للطوبجي أن يرفع فوق البيت العتيق قبة لتليق بالمزار الجديد، ويتلصص على صادق العروضي الذي أبهجه مرض نديم المكشوح وإذن الشيخ بركات.

وكان صادق يراوغ نفسه كي تكشف ماتضمر،وهي تتمهله، حتى تكاثر عواد المريض ممن يناصبون الطوبجي العداء، وراحت الطوبجية تنشغل بهم، وأفلت صوت صادق منه أمام الطوبجي ورملة:

- هذا كله نكاية بنا. هذا تحد لنا أمام بيوتنا. أخشى إذا ما سكتنا عليه أن يتضاعف بموت الرجل، وأن يتضاعف بعده أكثر، ويجر علينا ما يجر.

صاح الطوبجي:

- ماذا تفعل أنت والشيخ بركات؟ ماذا يفعل الأنوار؟

قال صادق وقد أخذت نفسه تجلو له سرها:

- أنا كما ترى: ليلي نهاري هنا حتى لا يتأخر البيت ولا أخلف بوعدي للست رملة. الشيخ بركات كما تعلم، حاله لاترضي، كأنه لاه عنا وأنت بيننا، فكيف لو رأيته بعد رجوعه من الرقة؟

قال الطوبجي ونظراته تفر من الحارة الفوقا:

- لن تخرب الدنيا إذ تأخر البيت. التفت للناس. أما الشيخ بركات فاليوم يسمع مالايرضيه.

قال صداق راجيا:

- لا تقس عليه يا سيدي. ولو سمحت لي: أنا أكلمه. إذا لم يعتدل فلك الكلمة الأخيرة.

قال الطوبجي ساهماً:

- رحْ له إذن.

فانفتل صادق يكبت طربه ويهنئ نفسه، ولعله لذلك لم يسمع رملة تكرر أمر الطوبجي بصوتٍ أعلى.

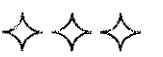

كانت أربع نساء أمام باب المزار عندما اقترب صادق، ولاقاه صوت إحداهنّ:

- إذا كان مرض نديم المكشوح يصفي القلوب ويوصل ما انقطع بيننا وبين جيراننا وأقربائنا، فهو خير يا بنت عمي.

تخفّى صادق خلف جذع شجرة الزنزلخت، وأرهف أذنيه. فكّت امرأة عقدة صغيرة في طرف منديلها، وقالت:

- الخجل يأكلني. هذا ما قدرت على توفيره. ما بقي عندي غير ثلاث دجاجات بيّاضات.

قالت المرأة الأولى:

- الشيخ بركات يقبل أي شيء ويدعو لك. ليس مثل صادق العروضي.

خرجت قدما صادق من المكمن، فشهقت النساء بجفلات، ووقفت صغراهن. شهق صادق نفسه فوقفت الأخريات وكانت الصغرى تسأل هلعة:

- هل تسمعين يا بنت عمي ما أسمع؟

كانت ذيول عويل تقترب، ولم يلبث الصياح أن اندفع من الحارة الفوقا. انشدت أعناق النسوة، وتبعهنّ صادق يغالب انفعاله: لقد مات نديم المكشوح إذن.

التفت صادق إلى المزار يغالب رهبة اجتاحته. وفَجَأه اختفاء النساء وعنق الشيخ بركات المصلوب على الحارة الفوقا. اقترب وهو ينتزع صوته من حلقه ويردد:

- الموت حق.

هز الشيخ بركات رأسه مراراً، ثم أطرق يتمتم بصوت راجف:

- لا شماتة بالموت.

وقرفص، فتبعه صادق هارباً مما به، وسأل غامزاً:

- أين ذهبت النساء؟

أشاح الشيخ بركات وسأل بسخط:

- ما الذي جاء بك؟

همس صادق:

- أعدّ ما تجمع. تأخرت في الحضور؟ سامحني وقل لي: كم جمعت حتى اليوم؟

وقف الشيخ بركات وسأل محتداً:

- قل أنت: كم جمعت؟

وقف صادق وهو يقول بأناة:

- سأل الطويبي. كأنك بدأت تخرف وتنسى. تنسى صادق العروضي، بسيطة. تنسى الطويبي؟ صرت تشتغل بمفردك؟ إياك ان تكون نويت أن تحل محلّه؟

سأل الشيخ بركات متراجعاً:

- ما للطوبي وما نحن فيه؟

تريدني أن أسأله أم تسأله بنفسك؟ من جهتي للطوبي دخل فيما نحن فيه وفيما لسنا فيه.

- لاتلعب بذيلك يا صادق.

- وأنت بماذا تلعب؟ بالزوار والمال؟ بالطوبي وبصادق؟ أظنك تلعب بروحك. اللعب بالذيل أهون على كل حال. متى تسلمني ما جمعت؟

- لو كان معي ما أسلم لسلمت للطوبي وما انتظرت تشريفك. صرفت كل ما جمعت أنت على البيت؟ أين حصتي؟

- مابقي لأحد حصة يا صاحبي. كل شيء للطوبي.

- وحسابنا القديم. من منا يخرف وينسى؟

- لاقديم ولاجديد. إذا كنت تريد شيئاً اطلبه من الطوبي. رحْ. هات ما معك ولاقني عنده بعد الغروب.

قال صادق، وانطلق عتيداً نحو حارته، وكان كثيرون منها قد توجهوا إلى الحارة الفوقا. وقبل أن يجتاز مكدس الحطب هرول إليه أشقاؤه وأبناء عمومته، تسبقهم أصواتهم متعجلة اللحاق بمن سبق إلى بيت المرحوم، فصاح:

- نحن قاطعناه حياً وميتاً.

قال العم الأكبر:

- كرمى لابنه يا صادق. الواجب أن نعزي يابن أخي.

- هذه كانت غلطة الشيخ بركات، سامحه الله. ابن نديم جرّ غيره وراءه، وغيره جرّه، وهذا ما لا يرضي الطويبي من غيرنا فكيف منا؟

وقضى بقية النهار يلوك ذلك كلما تسنّى له، ثم تهادى إلى بيت الطويبي.

3

بين يوم وآخر بات الشيخ بركات هو من يهدد اللُّحمة، فضلاً عن أنه خان الأمانة، وجمع المال لنفسه. وقبل أن تجف الدموع على نديم المكشوح، أو ينتهي البيت الذي أغضب التأخر فيه رملة، بات الطويبي أكبر قناعة من صادق العروضي، وصادق العروضي أقلّ قناعة بهول ما جنى الشيخ بركات. فلولاه ما تخطى بعضهم الحواجز إلى الخصوم وخالطهم، وهذا وحده مما يزعزع اليقين. لولا الشيخ بركات ما تأخر البيت الجديد، على الرغم من أن رملة خصّت صادق بغضبها. هكذا جلجل صوت الطويبي:

- اغربْ عني.

وربما كان مفجوعاً أكثر منه غاضباً، فَحُقَّتْ اللعنة على الشيخ بركات، وحُرِّم على الناس المزار القديم حيث حبس نفسه.

أما انتصار صادق فلم يكتمل حتى أَذِنَ الطويبي له بالبناء غربي السنديانة. لكن رملة التي انتفخ بطنها شوشت النصرَ، إذ عارضت

ان يقوم لأي كان بيت قريب من مقام الطويبي. واضطر صادق إلى أن يعيد حفر الأساس أبعد.

وفيما كان بيته ينهض كشفت له نفسه سراً آخر مما تضمر، وابتدأ يفكر بزوجة أخرى للطويبي، ثم تجرأ بعد أن ولدت رملة بنتاً أن يوشوش الطويبي:

- رملة تظل غريبة ياسيدي. ومن يدري، قد يكون بطنها لا يحمل غير البنات، مادامت استفتحت ببنت. لو تتزوج واحدة من الطويبة ياسيدي، فتبقى بذرتك في أرضها، والناس تحسّ أنك صرت أقرب. لو المرحوم والدك سمع نصيحة المرحوم والدي وسبق إلى هذا، لكان أفضل له ولنا اليوم.

ضحك الطويبي عالياً وقال:

- إذا كان لابد من الزواج خلّنا نفكر بغير الطويبة، لتعود سيرة والدي ووالدك. الديرة واسعة، والطويبة بين أيدينا على كل حال.

أشرق صادق معجباً بنفسه وبالطويبي. وقبل أن ينتقل إلى بيته الجديد. كان قد فكر وقرر: ليس للطويبي أن يتزوج بعد اليوم أياً كانت. بل ليس له أن يتزوج كي ينجب ذكراً، أو يمتع نفسه بمن هي أشهى من رملة. للطويبي- أو عليه- أن يتزوج بنت شيخ الطويبة الشرقية، أو بنت شيخ طويبة الشعرا مثلاً. الشيخان ذائعا الصيت. ولو صاهر الطويبي واحداً منهما فسيكون قد أتى بمن لا تصلح رملة خادمة لها. سيكون قد ضرب جذوره أعمق وأقوى، واستمال الشيخ توفيق علاط أو الشيخ ناظر ميمونة، أو كليهما. عندئذٍ تعود رملة إلى

أصلها: خادمة، ولا يجرؤ أي كبير على أن يتحدى، حتى لو لم يتبع الطويبي. فمن يصنع هذا كله غير صادق العروضي؟

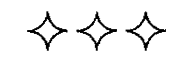

صاحت رملة بأعلى صوتها حين أعلى الطويبي عزمه على خطبة ناهي بنت الشيخ توفيق علاط:

- كله من صادق العروضي. لن نرى الخير مادام شورنا من رأسه. إما أنا في هذا البيت وإما أنت يا صادق، والأيام بيننا.

تقدم صادق سيده. ومشى في الموكب المهيب عشرات. لكن الشيخ توفيق علاط تردد طويلاً، ونهر صادق العروضي مراراً في خلوتهما:

- ماذا يقول الناس لو قبلت؟ كفر الشيخ توفيق علاط في آخر عمره، ومشى خلف طاهر عوانة أو خلف الطويبي؟

قال صادق:

- نحن نطلب يد بنتك، لا نطلب دينك وإيمانك.

وقال:

- مهر ناهي لا يكون مثله مهر، وعرسها لايكون مثله عرس.

وقال:

- لا تردنا خائبين. تذكّرْ الشيخ بركات ولا تستهنْ بنا. نحن ما اقتربنا من طويبة الشعرا حتى اليوم تقديراً لك. بكرة تصير بيدنا مثل غيرها، أو على الأقل يصير لنا فيها ضلع، ولو ما كان ضلع ناهي. بعدها لا تعتبْ علينا.

امتدت الخلوة من العصر إلى المغيب، حين شقت الزغاريد ليل طويبة الشعراء، ونُحِرَت الخواريف العشرة التي سبقت الموكب بيوم. وأمر صادق بإيقاد النيران حتى الفجر، كي تضاء الديرة كلها. وجَهِدَ أن يشيع أن الشيخ توفيق علاط صاحب المقام الأكبر بين الشيوخ انقاد للطويبي، فلولا هذا ما صاهره.

كان يجهد في الآن نفسه في بناء مطرح للعروس، موسعاً بيت الطويبي الجديد إلى الشرق. كان بعض الناس على أن تبذل للعرس الكبير، وخاصة من سارع منهم إلى الولاء إثر الخطوبة. وقبل أن تنقضي السنة الثانية على رجوع الطويبي من الرقة، أحيا ثانية ليلة الطويبة الأولى من أول قمر صيفي. وكان صادق قد كوّم في حرج الشيخ توفيق مائة ذهبية، وفي حرج العروس مائة، وبمثل ذلك أو أكثر تكومت الهدايا في بيت الطويبي وفي بيت صادق. أما ما أُنفِقَ في الخطوبة أو في العرس أو فيما بينهما فربما بلغ المائة أيضاً، إذْ لم يعد صادق يدقق حساباً، منذ لفظ الطويبي الشيخ بركات.

لعلّ ناهي لم تكن مسحت الدم بعد من بين أو على فخذيها، عندما تصادى الفضاء أن بنت الشيخ توفيق علاط سوف تلد للطويبي بكره الذي يحمل سيف الخضر، ليقوم به عوج الدنيا، ويفتح مصر ومن بعدها بلاد العرب والهند والسند والسود والصفر، ويصير رئيساً أو ملكاً لا نظير له بين الرؤساء والملوك.

وما إنْ تلاشى ذلك حتى تأكد حمل ناهي، فَقُرِعتْ الطبول لليلة واحدة. ولم يتجدد القرع كما كان صادق العروضي قد رسم، إذ جاء معوض أفندي في الصبح ينبئ بنقله إلى حدود تركيا عقاباً من الكاتبن آلان، أو من المحافظ نفسه، على ما أفصح أخيراً من ميل للطوبجي.

كتم الطوبجي غيظه. وتساءل عما إذا كان من الأفضل أن يطلب مدير الناحية إعفاءه من الوظيفة، فأضاء وجه معوض أفندي، وقال:

- هذا ما كنت أنوي أن أستشيرك به ياسيدي. معوض صار في الستين، وما عاد يقدر على الرواح والمجئ. ما عدت أريد من الدنيا غير أن أقضي بقية عمري تحت سنديانة مثل هذه السنديانة، بل تحت هذه السنديانة ذاتها.

تراءى لصادق في معوض أفندي شبهاً بالشيخ بركات: قد يكون في التجاعيد المتقطعة، في السنّ، في كثرة الأولاد، وربما في شعث الحاجبين والشاربين. وأقبل يدقق، فاختلطت عليه النفس الضعيفة بالنفس المؤمنة، وقال أخيراً:

- لماذا لا يكون نقلك إلى منطقة الحدود خيراً؟ أنت بعافية وعزمك مازال عزم الشباب. لا تنحْ مثل العجائز. تولَّ الدعوة لسيدي في تلك الجهات. قد تستجيب لك الناس لو عرفت كيف تدعو، وتمتد ذراع الطوبجي من هنا إلى تركيا نفسها.

بُهِتَ معوض أفندي وتلعثم قائلاً:

- أنا في الخدمة ما عشت. أنا في الخدمة هنا وفي كل مكان.

سأل الطوبجي وهو ساهم:

- بِمَ تفكر يا صادق؟
- بك ياسيدي.

أسرع صادق مجيباً، فالتفت الطويبي إلى معوض أفندي مشفقاً، ثم خاطبه برقة:

- صادق على حق. إلى متى نبقى محصورين في بقعة واحدة؟ ولكن عليك بالكتمان. لولا أنك فرطت به لما نقلوك. من يعلم كيف يكون خلفك؟ توكّلْ ولا تطلْ الغيبة. خلّني أسمع أخبارك الطيبة.

ونهض مودعاً، فأسرع معوض أفندي إلى حضنه كمن يلتجئ أو يريد أن يبكي، وكبت صادق فرحته.

ما كاد معوض أفندي يبتعد حتى ملأ صياح رملة البيت:

- ليتني ما تبعتك خطوة. طلقني. ما جئت لأعيش في زريبة نساء.

ناشد الطويبي بالسكوت، لكن صياحها تضاعف:

- أنا مقطوعة، نعم. لكني تربيت وعشت معززة مكرمة. أنت تعرف والرقة كلها تعرف. أنا لست خادمة لك ولا لبنت الشيخ توفيق. عمري ما كنت خادمة. بكرة تبلوني بثالثة ورابعة. من يعلم بما يكيد صادق العروضي؟ بكرة ترميني وترمي بنتي كما ترمي حذاءك، لو جاءت ناهي بحمّال سيف الخضر.

أحسّ الطويبي أن كفاً صفعته فصاح:

- لاتسخري من بكري. أقطع لسانك لو نطقتها مرة ثانية.

وأشهر كفه، فدفعت رملة بابنتها في وجهه. تلقت البنت الصفعة فانفجر البيت بزعيقها وبكاء رملة. تراجع الطويبي إلى الباب، ثم انفلت ينادي صادق. ولما وصل صادق ألفاه تحت السنديانة مقعياً يزفر.

قال صادق:

- طلقها ياسيدي. رملة غريبة وتبقى غريبة. قلت هذا من قبل وأعيده الآن. كرمى لك أوصلها بالحفظ والصون إلى البيت الذي جاءت منه، أما البنت فبنتنا.

همس الطويبي متوجعاً:

- أنا أحب البنت يا صادق. رملة نفسها أحبها. كنت أظنها أعقل. أصابها الجنون بعدما حملت ناهي. صحيح أن ناهي أحلى وأصغر وبنت أصل، لكن لا تنس أن رملة أول امرأة في حياتي.

تساءل صادق منغّماً صوته:

- سيدي صارحْني: تعودت على اثنتين؟

تنهد الطويبي حيران، ثم قال:

- يجوز؟

همس صادق بحرارة:

- غداً تبدل رملة بمن تنسيك ناهي معها.

تبسم الطويبي وقال مصطنعاً الغضب:

- مافات على ناهي غير صيف واحد. تريدني أن أبلوها بضرّة حتى تجنّ مثل رملة. نسيت من يكون أبوها؟

- لا ياسيدي ما نسيت. ولكن مازال الشيخ ناظر ميمونة يجافينا. الطويبة الشرقية عاصية علينا بسببه. لو صاهرناه وسائَدنَا مثل الشيخ توفيق علاط وطويبة الشعرا، فماذا تظن تصبح حالنا؟

قال صادق كأنه تدبّر الأمر كله منذ وقت طويل.

- افعل ما تراه مناسباً.

قال الطوبي مستسلماً، وتوجه إلى البيت منادياً رملة بصوت لا يكاد يُسمع، ولبث صادق يَعِدُ نفسه بفرجة ماتعة وانتصار جديد.

رفضتْ رملة أن يرافقها أحد، وأقسمت برحمة أبيها وأمها على أنها ستنتزع ابنتها يوماً من أحشاء الطويبي. وفي يوم رحيلها تقدم صادق موكباً لائقاً إلى الطويبة الشرقية. بيد أن الشيخ ناظر ميمونة كان أعند من الشيخ توفيق علاط. ولم تجْدِ وعود صادق ولا وعيده، فقفل بالموكب خائباً وناقماً. وما كاد الطويبي يخلو بصادق حتى خاطبه كسيراً:

- أنت السبب. هات شطارتك الآن. الشيخ ناظر صيّرك وصيرني قبلك مسخرة.

قال صادق بثقة عارمة:

- استرحْ ياسيدي. وإذا لم تحضر غزالة بنفسها إلى هذا البيت ابعثني إلى المزار حتى أؤانس الشيخ بركات.

عقب ذلك بأيام أشغله الموظفون الذين توافدوا - كما أشغلوا الطويبي- عن أي أمر سواهم. ليس لأنهم جميعاً قدموا من المحافظة، ولا لأن مدير الناحية الجديد رافق أولهم، والكابتن آلان رافق آخرهم، بل لأنهم كانوا ينزلون في بيت الطويبي، وكل منهم يتمطق بالانتخابات القادمة، وبمن يكون نائباً عن الطويبة وما حولها.

تساءل الطويبي طويلاً أمام صادق أو بمفرده عمّا بدّل الحكومة، وبخاصة مدير الناحية الجديد والكابتن آلان، وعمّا يجعل كرسياً من كراسي النيابة في القضاء تحوم حول الطويبة. وفي كل مرة كان يستجيب لصادق، فلا بد أن يكون السبب ما آلت إليه الطويبة والقضاء برمته بفضل الطويبي. بالأمس لم يكن الطويبي. اليوم اختلف الأمر. العنف لم يجد. الآن إما أنهم يجربون غيره أو أنهم يسلّمون. اليوم: الطويبة والقضاء وكرسي في البرلمان، وغداً يكبر هذا كله، ولا أحد يقدر على أن يخمّن ما يكون.

لكن الطويبي عفّ عن الكرسي وقد انقطع الموظفون، وضيّع تعب صادق وما أنفق في الناحية والقضاء والمحافظة، وليس فقط في الطويبة. ولم يلبث أن تناهى أن المحافظ وآخرين في العاصمة نفسها، كانوا لن يسمحوا للطويبي بالدخول إلى البرلمان، حتى لو فاز بالأصوات جميعها.

لعن الطويبي المحافظ والحكومة، وأمر صادق أن يبلغ كل ذي شأن، ومن هو بلا شأن، أن الدولة هاهنا، وحيث يمتدّ البصر، هي للطويبي، سواء أكان له كرسي في البرلمان، أم لم يكن له كرسي في أي مكان، ولم يسلم صادق نفسه من اللعن.

إلا أن صادق بدلاً من أن يفعل ذلك اشترى لسيده سيارة رينو كبيرة وجديدة، وأجّر سائقاً، وأمر الأنوار فأمروا الناس بشق الطريق الجبلي ومهده أمام السيارة. ثم أمر الشيوخ والمخاتير والمقدمين أن يتبرعوا من جيوبهم كي يهيء جيداً الكرسي لنائب الطوبية الجديد القادم. وبعد ما تمّ له ذلك استأذن الكابتن آلان بزيارة.

دخل الطوبجي المدينة للمرة الأولى منذ عاد من المنفى. سوى أنه بدا الآن زعيماً يتباهى بسيارته وثيابه ومرافقيه الذين سبقوه إلى السراي، ثم سبقوه إلى الطوبية يزوّقون المدينة التي ارتجفت خوفاً من الطوبجي، والكابتن الفرنسي الذي لاقى ضيفه عند الباب، والمحافظ الذي أقام وليمة كبرى، والأغوات والبيكوات والأساتذة الذين كانوا يتوافدون كل مساء إلى الأوتيل.

وكما في الذهاب، كذلك في الإياب بعد أربعة أيام، كان صادق ظلاً للطوبجي. ومثل الطوبجي أسكره الغناء في الليالي الخريفية التالية التي وشّحها الهلال بنثار الغيوم:

يا جمّال وايش محمّل ... محمّل عدس بترابه
واللي يخالف الطوبجي ... ربي يقرف شبابه
ويا جمال وايش محمل ... محمل فستق عبيدي
وهدا حكمك ياالطوبجي ... وأنا شو طالع بيدي

أما في النهارات التي كانت تجعل سريعاً ذلك كله طيفاً، فكان صادق يهيئ سراً الشباب الذين سينطلقون إلى الطويبة الشرقية ليخطفوا بنت الشيخ ناظر ميمونة من حضن أبيها، ويرموها في حضن الطويبي. وحين حلت الساعة الموعودة، وانطلق الشبان مشرعين بنادقهم في وجه الشمس الغاربة، أخذت ناهي تتوجّع، فهمس صادق في أذن الطويبي:

- البشارة ياسيدي. الليلة يأتي خضر الطويبي حاملاً سيف سيدنا الخضر. والليلة تأتي بنت الشيخ ناظر.

انفلش الطويبي هنيهة، ثم جمع نفسه وقال متوعّداً:

- إياك أن تظن يوماً أنه يفوتني ما تدبّر. تذكّرْ يا صادق: إذ ولدت ناهي بنتاً، أو تأخرت غزالة حتى طلوع الشمس، فمطرحك الوحيد في الدنيا يكون جيرة الشيخ بركات.

وقهقهة، وصادق يستعيد الوعيد معجباً، ثم يهتف معتداً:

- وأنا راض بما حكمت.

ويطلق قهقهة لتلحق بقهقهة الطويبي التي تجددت.

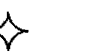

4

بينما كانت ناهي بنت الشيخ توفيق علاط تصرخ، والداية تباعد بين ساقيها وتشد الوليد الحرون، كانت غزالة بنت الشيخ ناظر ميمونة، في فراش رملة، تصرخ، والطوبي يباعد بين ساقيها، ويخترق لحماً هلوعاً وحروراً.

ومثلما لازمت ناهي الفراش إثر الولادة، تذوي وتقلب الفرحة بخضر الطوبي غمّاً، لازمت غزالة الفراش إثر الزواج، تذوي وتقلب الحلاوة مرارة.

أما الطوبية فرددت أن الطوبي غاضب على زوجته، وأن الشيخ ناظر ميمونة حبس أو أطلق تابعة ابنته وضرتها. وعما قليل رددت أن الشيخ اشتكى لرئيس الوزراء اعتداء رجال الطوبي عليه، وحرقهم لبيته، وخطفهم لابنته.

تواتر ذلك خاصة في أول غيبة لصادق تمتد اثني عشر يوماً. وفاقم غيابه قلق الطوبي وغضبه. لذلك ابتدره حين عاد:

– تركتني وحدي في هذا الجحيم وطابت لك المدينة. أين كنت؟ ماذا كنت تفعل؟

بتر صادق ضحكته العريضة وقال:

– ماتركتك لحظة ياسيدي.

– تأدبْ يا صادق العروضي. ليست أول مرة تقلل فيها أدبك أمامي.

قال الطوبجي وقد استفزه ما حسب من ممازحة صادق أو هزئه، فتطامن صادق وأخفت صوته:

- من مدينة إلى مدينة درت ياسيدي. ما ثمت في مطرح ليلتين. خمس شكاوى عاجلة أقمنا على الشيخ ناظر، كل واحدة في بلد، وكل بلد في جهة. خلّه يدور بعد هذا من محكمة إلى محكمة.

سأل الطوبجي باستخفاف:

- ما الفائدة؟

قال صادق وهو يستعيد ما ضاع من ثقته:

- إما أن يسقط دعواه ويقبل المصالحة، وإما أن يقضي بقية عمره بين المحاكم وعلى الطرقات. البارحة تركت له مع المختار ثلاثماية ذهبية، كيس بوزنه، وأوصيت له: مهر بنت الشيخ توفيق علاط، وهو من هو، كان مائة. أظن أنه يطلبنا قريباً للصلح.

بدل الطوبجي جلسته والغضب يغادره. وقال:

- ليرة الورق كثيرة على بنت الشيخ توفيق وعلى بنت الشيخ ناظر معها، فكيف بليرة الذهب! واحدة انفلقت من أول ولد، وواحدة انفلقت من أول ضرب. ونحن دفعنا وندفع ما يفك عقدة سروال فاطمة المغربية.

- أنت من رفض يا سيدي أن نقيم لغزالة عرسها، وما تركت الناس - بسبب هذا - تفرح بخضر الطوبجي. بدل العرس كنا أقمنا عرسين، وجمعنا ضعف ما دفعناه، أو عوضناه على الأقل.

قال صادق محاذراً، فأمر الطوبجي برفق:

- بعد الصلح مع الشيخ ناظر أقيموا العرس لابنته. كما شرحت لك من قبل: تحاشينا العرس لأن البنت مخطوفة، ولأننا لا نريد للشر أن يكبر بيننا وبين والدها. بعد الصلح افرحوا بالولد كما يحلو لكم.

قال صادق متخلصاً من حذره:

- الأهم يا سيدي بعد هذا أن نفكر بطريقة ثانية. إلى متى ننتظر المناسبات. لا بد من مورد ثابت، مورد دائم. حالنا اليوم يا سيدي غير ما كانت عليه قبل سنة أو ثلاث.

غامت عينا الطوبجي، وأسند جبينه على راحته، وقال:

- لا تحمّلْ الناس فوق طاقتها. الفقر ضارب أطنابه من الأزل في ديرتنا.

ثم تهدج صوته بالشكوى:

- همّي الآن ياصادق في غير ما تقول؟

- ما همُّ سيدي؟

سأل صادق لهفان، فتدحرجت كلمات الطوبجي أسيانة:

- الطوبجي ما توفّق بأمرأة بعد ثلاث زيجات.

- الطوبجي في عزّ شبابه. أنا ما بلغت الأربعين، وأنا ولدت قبلك بسنتين أو ثلاث. لولا الضرورة ما نامت غزالة ولا ناهي في فراشك. الآن يستطيع سيدي أن يختار على مهل، وكما يرغب.

- أتزوج من رابعة يا صادق؟

- ومن خامسة يا سيدي. ليس على ذمتك الآن إلا ناهي وغزالة.

- حتى لو سلمت لك، إلى أيـن تراني أخرج حتى أرى بنات الناس وأختار؟

- أنا أدبر هذا يا سيدي. وبجاهك يكون لنا كل سنة عرس.

قال صادق بحماسة، وهمّ بالانصراف، فأشار الطويبي بالجلوس وهو يبتسم، وجلس صادق وهو يتملظ.

لم يشرق وجه الطويبي حتى أنجز صادق الصلح مع الشيخ ناظر. وعلى الرغم من أن الشيخ بات إثر ذلك أكبر جهارة في معارضته لصهره، إلا أن صادق بثّ في الديرة أن شيخ الطويبة الشرقية اتبع الطويبي، وأنه لا يعارض إلا تقية، وصدّق كثيرون، حتى من كان منهم يسمع بأذنيه صوت الشيخ ناظر مكذباً.

غزالة أيضاً استعادت عافيتها إثر الصلح. لكأنها كانت تتوجع من غضب أبيها ومن خوفها عليه، لا من قضيب الطويبي الذي تفجرت شهوته، وظل أسابيع يركبها ويركب ناهي كل ليلة، كأنما يهرب من ذلك الفراغ الذي تلمسّ في حناياه عندما لازمت زوجتاه الفراش.

ما كاد الطويبي يملأ ذلك الفراغ ويهنأ حتى عاوده فراغٌ أكبر. كان الشتاء الذي بكّر كثيراً قد بدأ يئد البشر في الجحور، فلم يعد أحد يغامر بالخروج من الطويبة سوى الشيخ بركات وصادق العروضي.

ولئن لم يبال الطوبجي بغياب الأول أو عودته، فقد أثقلت عليه الغيبة الطويلة الثانية لصادق.

ولعله كان لن يكتفي هذه المرة بالتعنيف، لولا أن وصل صادق مضطرباً وخائفاً. ولم يكن الطوبجي قد رآه كذلك من قبل.

كان الوقت ظهراً والطوبجي يستبطئ الطعام. وكانت الشمس تخرق السحاب لأول مرة منذ أسابيع، غاب منها صادق ثلاثة. أمر الطوبجي الطعام فوراً، والشفقة تحل فيه محل الغضب. إلا أنه لم ينبس، ولم يجرؤ صادق على أن ينبس، حتى غادرا الطاولة الخفيفة إلى الخوان. ولم تكد نظرة من الطوبجي أن تأذن حتى انطلق صادق مقلباً كفيه:

- كل شيء على كف عفريت يا سيدي.

- اهدأ ووضح.

أمر الطوبجي وعيناه تبحثان عن الشاي الذي فاحت رائحته في مكان ما.

- أينما درت من هنا إلى العاصمة لا تسمع إلا من يطالب بالقضاء على دولة الطوبجي. في بيروت نفسها من أكد لي أنه لولا فرنسا لكان ...

- صار لنا دولة وصارت فرنسا تحميها؟ خفّ عقلك بهذه الغيبة ياصادق؟

قال الطوبجي مقاطعاً بضيق، فتابع صادق وهو يكبت انفعاله:

- الكابتن آلان نفسه ياسيدي قال لي: كان الله يعونكم إذا مشينا من هذه البلاد.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

- إياك أن تكون صدقته. نحن والكابتن أصحاب هذه الأيام، ولكن إياك أن تكون نسيت. من ناصر الخوري امطانيوس علينا؟ من قاد الحملات علينا ومن رخّص لها؟ من نفاني ونفاك؟ من زرع المبشرين بيننا؟ مهما تفعل الحكومة بنا تبق أرحم من الغريب؟

- كل ما تقول يا سيدي صحيح، ولكن علينا أن نسابق الأيام.

- قلت لك اهدأ ووضحْ. هات من الآخر. أنا أعرفك. بماذا تفكر؟ قل ما على رأس لسانك، ولا تعضّه.

- كلما ازدادت قوتنا هنا وفي كل الجهات يكون المستقبل أكبر أماناً ياسيدي. بهذا لا يهم أن ترحل فرنسا أو ترحم، ولا يهم أن يأتي غيرها أو يظلم.

- هذا الكلام ليس من رأسك يا صادق.

- أين كنت إذن طوال هذه المدة؟ ماذا تحسبني كنت أفعل؟

سأل صادق والطويبي ينظر إلى الشاي والصمت. كما سينصرف بقية النهار، وقد عاد الهطل أغزر، ومضى صادق مخلفاً أطيافاً لبشرٍ كثيرين وبقعٍ تتباعد وأصوات تمجّد وتخرف، كما تحذر وتغوي.

وكما هجم الشتاء بجمعه وبكّر، فعل الصيف، وعاد الطويبي لا يبارح السنديانة.

كان يطيب له أن يسترخي في ظلّها الناعش، يحمل صغيره أو يرمق غزالة التي انتفخ بطنها. يهامس صادق معابثاً كلما انفردا، يتلذذ بما

يتناهى إليه من المدينة، فها هي الأيام تتوالى، وفرنسا لم ترحل، والحكومة لم تهاجم، وكل أمر يسير بانتظام لا عهد لأحد به، أما دولة الطوبي فأين هي؟

كانت الأطياف التي ما عادت تنقطع تسفر كل حين عن السؤال. تقرأ له ما قرأ عندما كان هارباً - بخاصة. تنسيه ما حفظ وتروي بأصوات جديدة ما روى له كثيرون من قبل، تقرب الحدود من بعضها، تحمله فوقها، تسمّي ملوكاً وممالك ورؤساء ودولاً، وعندما تنجلي عن قتلى ومنفى ومحكمة ينفر، ويؤكد أنه لم يبتغ يوماً شيئاً من هذا، ولن يبتغي.

وبين غيبة للسؤال وظهور- في الآونة الأخيرة بخاصة- كانت عيناه تضمّان السنديانة حتى توحّداه بها، وتتركاه يلهج فقط بسنديانة مثلها، أصلها هناك، في دار الحبيب، وما من مؤمن إلا في داره منها غصن، وما من شهوة يشتهي إلا يأتيه بها الغصن.

كانت السنديانة تكبر به وبالناس جميعاً، والحصان يرمح في ظلها مائة عام فلا يخرج إلى الحرّ. كانت أعماقه تصدح: هذه هي وحدها: صلبة وحنونة وراسخة وشاهقة، لو طار من أسفلها الطير ما بلغ أعلاها حتى يهرم، مثل الشيخ بركات. هذه هي طوبى نفسها: أصلها في الجنة، وما في الجنة قصر إلا وفيه منها فتر. هذه هي حلل السندس والاستبرق تكلل الذؤابات. هذه هي الأسفاط، لكل مؤمن منكم سفط، لك يا صادق العروضي سفط، لك يا معوض أفندي، لكل نور من الأنوار سفط، وفي كل سفط ألف حلة، بل مائة ألف حلة، وما من حلّه تشبه حلّة. هذا قطافها يا إخوتي، مدوا أيديكم من الشبابيك،

فوق كل شباك يتدلى مائة لون ومائة صنف، ما منها لون أو صنف يشبه لوناً أو صنفاً، وكلما قطفتم قطفة قامت مقامها قطفة، فما الفرق بين طوبى وبين السنديانة؟

كذا بات السؤال فجأة، مثلما بات يملأ عيني الطوبي بنهر يصفق في أصل السنديانة، ومن حوافه الدانية والقصية تدفق أنهار من عسل وخمر. كانت الأنهار يوماً تلو اليوم ترمح مثل الحصان في ظل السنديانة، و الحوافّ تغدو أعرض من الدهور، والأمواج تطرب، والماء يدوّم حول القصور، والبهاء يسع السماء والأرض.

فجأة أيضاً انطفأ روح الطوبي، إذْ أتت النار عليه. كانت دموعه تنفرط مداريةً الكون، تصدّق أنه لم يبتغ يوماً ولن يبتغي إلا أن يدرأ تلك النار. وكانت الأطياف ترسم الملائكة تنفخ في النار ألف عام حتى تبيضّ، فألفاً حتى تسودّ، فألفاً حتى تصفّر، وتصير القطرة من ضريعها تكفي لأن تهلك العالمين.

كذلك صار صوته يندبه بين ضلوعه: النار النار يا إخوتي. ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم بعدما أطفأتها الملائكة سبعين مرة. هاتوها يوم القيامة يا إخوتي. ضعوها في أي شقّ من جهنم واسمعوا صراخها. ما من مَلَكٍ مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا هلعاً، فكيف بي وبكم؟

رويداً صار خضر الصغير وحده من يقطع عليه العناء، ويدعه يضحك أو يبكي أو يغفو لاهياً بالأسئلة والأطياف. كان يتطوح بين دنيا وآخرة أو بين جنة ونار. ورويداً صار يتقفى صغيره ويقدر على أن

يضحك، أو يأمر صادق العروضي، أو يرجو أن يكون أحد على حق، فتقوم ها هنا، تحت السنديانة، دولة أو ما أشبه.

ولما ألف من نفسه ذلك بات يسأل صغيره: ما الدولة غير واحد مثلي ومثلك يا ابني يا حبيبي؟ لِمَ يخرّف أو يكذب صادق العروضي أو الحكومة أو فرنسا؟ ما الدولة غير الطويبي يفديه البشر بأرواحهم ويسوس لهم دنياهم؟ مَنْ أولى بالدولة منك ومني يا ابني يا حبيبي، وأنا أسوس للبشر فوق دنياهم آخرتهم؟ من كان معاوية بن أبي سفيان أو هارون الرشيد أو السلطان عبد الحميد؟

وإذ يغفو الصغير على تلك الهدهدة، تضيء عينا الطويبي وتخضلاّن في آن، ويفلت لصادق العروضي حباله كما يفلت الزمن، ليقوم عرش ها هنا، تحت السنديانة، يملؤها هو أو الصغير الغافي، كأنه عرش ملك في العراق أو مصر أو بريطانيا، أو عرش رئيس في سورية أو تركيا أو فرنسا، وتستوي فيه سياسة الدنيا وحدها مع سياسة الدنيا والآخرة. ولعل الطويبي لم يكن ليخرج من هذا الذي ظلّ يكابده منذ شهور لولا أن وصل مدير الناحية بنفسه حاملاً دعوة من المحافظ الجديد إلى العشاء في المصيف، يوم الخميس القادم.

5

صبيحة وصول الدعوة أقبل صادق مكدّراً وقال:

- تعلم يا سيدي أن الشيخ بركات رجع إلى عادته القديمة: يترك المزار بين وقت ووقت، ويدور من مكان إلى مكان، لكنه هذه المرة يبعد، كأن الزكاة وحدها ليست غرضه، أينما دار ما على لسانه غير سيرتنا.

سأل الطويبي مهوناً:

- هل كنت تتبعه؟ ما نسيته بعد؟

قال صادق:

- أتبعه، نعم، ولو كنت نائماً في فراشي. لو غفلت عيني عن طير أقلعها، فكيف بالشيخ بركات. لسانه كالبرد ياسيدي: عائلتي تموت من الجوع. ظلم فرعون أهون من ظلم الطويبي. أخباره تصلني ساخنة. والرأي أن لا يخرج من الطويبة إلا بإذنك يا سيدي. اسأل معوض أفندي عندما يحضر.

- رحْ بلّغ هذا للناس. بلّغه هو أولاً.

أمر الطويبي، والتجأ إلى ابنه من القلق الذي عبر به. لكن القلق عاوده أثقل بعدما انصرف مدير الناحية. وبدلاً من حضن خضر التجأ إلى حضن السنديانة، يسأل عما إذا كان في الدعوة مكيدة أو تهديد مبطّن. وكلما كان الموعد يقترب كان القلق يكبر ويغمض، حتى إذا حلّ افتقد صادق، فازداد ضيقاً.

كان قد عزم على أن يتوجه مبكراً إلى المصيف كيلا يسبقه أحد من المدعوين. لكن انتظار صادق أخّره. وبينما كان يتناول غداءه قرفاً، جاء ابن نديم المكشوح يوشوش:

- الشيخ بركات أفلت يا سيدي.

- أحضروه حياً أو ميتاً. بلّغْ صادق. أين صادق؟

قال الطوبي وهو يزدرد لقمة ويلوي عن الطعام. حرنت اللقمة في بلعومه وأحسّ أنه يختنق. أسرعت ناهي بطاسة الماء فألوى عنها. جحظت عيناها مثل عينيه، واجتاحته الرغبة في أن يختنق، لكنه تجشأ بقوة، وهللت ناهي، فزجرها واستلقى.

كانت النسائم قد أخذت تلفح سلخنة. تعجّبَ من أن يتعرق لأول مرة في ظل السنديانة. نهض متثاقلاً وعاد إلى البيت كأنه يزحف. بلّل ثيابه بتراخٍ وتمنى ألاّ يتركه صادق يذهب وحيداً. ومن أجل ذلك لبث في السيارة بعد حبات العرق التي تنفرط على جبينه حتى أخذت الشمس تعري السيارة من ظل السنديانة، فأمر السائق بالانطلاق.

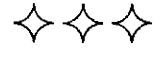

كان من سبقوه يملأون باحة البيت الصيفي الفسيحة. وملء الطريق المسوّرة للباحة والبيت كانت سياراتهم. ألجمه التهيّب - مثل سيارته- حتى اقترب المحافظ. تخلّص من العيون التي انصبت عليه وعلى المحافظ. اخترق سمعه هدير المحرك الكهربائي فتوقف متحفزاً. ابتسم المحافظ وهو يلغو ويصافحه ثم يتأبط ذراعه ويشده. هبت

نسمة باردة وسرّه أن يجفّ عرقه فجأةً. اقترب عبد الحليم آغا مرحباً. تحررت ذراع الطوبجي من الحافظ. اقترب الخوري امطانيوس، فالقائمقام، فالكابتن آلان، فكثيرون ممن يعرف وممن يجهل، وانفرجت أساريره، وراحت نظراته تهشّ للوجوه الضاحكة والأسطحة القرميدية والشرفات الحجرية البيضاء، وكانت عصافير المساء تتطاير ملء الأشجار العالية المعمرة، وزقزقتها تزاحم صخب الحفل الكبير.

تخيّر الحافظُ الطوبجي ليمينه، وليساره عبد الحليم آغا. ولما انتزع الطوبجي فخذ الخروف الذي يتوسط الطاولة همس الحافظ مداعباً:

- قيل لي إنك كنت أنحف مني وقت رجوعك من الرقة.

سأل الطوبجي مستنكراً:

- تريدني أن أنحف؟

ضحك الحافظ وقال بصوت مسموع:

- حرصاً على صحتك، نعم، ولكن ليس في الرقة.

وهمس ثانية والطوبجي يقدم له قطعة من الفخذ:

- صحتك تهمنا جميعاً. أنت لست مثل هؤلاء. واحدهم كبير عائلة، شيخ عشيرة، رئيس حزب، إمام جامع، وجيه حارة، تاجر أو ملاك .. أما أنت؟ أنت تذكّرني بالبطرك في فرنسا، أنا درست في السوربون. أنت لا تعرف فرنسا إلا هنا. أنت زعيم من نوع جديد كان دائماً في تاريخنا. في الشرق كله زعماء من هذا النوع، أكبر منك بالطبع، لا تنتفخ. اليوم ندر هؤلاء. هل تعرف هذا أو خطر لك؟

كزّت أصابع الطوبجي على الفخذ فيما انصرف عنه المحافظ. ولعل ذلك ما رماه بالضيق من جديد. وإذْ طال انصراف المحافظ عنه زاد ما قاله استغلاقاً، فعافت نفس الطوبجي الطعام، وود مراراً أن يسرع إلى سيارته ويمضي بعيداً. لكن المحافظ أجفله أخيراً وهو يعلن أنه يستضيف الليلة الطوبجي وعبد الحليم آغا، فأدرك الآخرون أنه يعلن نهاية الحفل. ولم يفت الطوبجي ما التمع في عيون كثيرين من حسد أو استكبار أو تشوّف، وكانت عيناه تلتمعان ببعض ذلك أيضاً، وبقليل من الخوف والحذر.

قدّمَ المحافظ بنفسه لكل من ضيفيه كأساً من الكوسكي. ازورّ الطوبجي قائلاً:

- أظنك تعرف أننا لا نشربه.

قال عبد الحليم آغا بوقار:

- هم يشربون العرق فقط.

وانفجرت ضحكته، فقال الطوبجي:

- كرمى لهذا البيت لن أعدّ كلامك غير مزحة غليظة.

قال عبد الحليم آغا مدارياً:

- صحيح إذن أنك حرمته على قومك بعدما حرمه معوض أفندي على نفسه.

قال الطوبجي:

- صحيح. ولكن أتعرف السبب؟ حتى لا يخرج واحد منا من قبره يوم القيامة أنتن من الجيفة: هذه الكأس تكون قطعة من كفه، وهذه الزجاجة معلقة بعنقه، ومنها لا يغرف إلا الأفاعي والعقارب.

تعوّذ المحافظ فالتفت الطوبجي إليه وتابع:

- أنت أيضاً، وهو وكل من يشرب هذا. قبرك يكون يوم القيامة حفرة من النار لصق قبر هامان. يرفعت اللهب إلى أعلى فتضربك الزبانية. تهوي إلى أسفل فيغلي دماغك من صهد النعلين في قدميك. تعطش وتصيح: اسقوني شربة ماء. تسمعك الملاكة وتأتيك بالقدح بعد القدح، والقدح يغلي، ولحم وجهك يسقط من حرها، حتى إذا وصل الحميم إلى بطنك قطّع أمعاءك فانسلّت من دبرك. بعدها تعود كما كنت، ليعود عذابك أشد. الآن تعوّذ.

أبعد المحافظ كأسه ووقف مربدّاً، تمتم:

- حرام عليّ أن أذوقها بعد الآن.

غبّ عبد الحليم آغا جرعة كبيرة، وقال والمحافظ ينسحب:

- أخشى لو سهرت عطوفتكم مع الطوبجي سهرة ثانية أن يضمّك إلى صفّه، ويلحقك بمعوض أفندي.

وقف الطوبجي مكشراً وداعياً إلى النوم. أتى عبد الحليم آغا على ما تبقى في كأسه دفعة واحدة. اعتذر المحافظ عن ضيق المكان والصدر، وابتعد. سأل عبد الحليم آغا وهو يتبع الطوبجي:

- هل تشخر ياسيدي؟

- بعدما صار لي هذا الكرش. من قبل لا.

قال الطويبي وهو يستطلع السريرين المتلاصقين، ويكذب أن يكون عبد الحليم آغا يسخر منه.

- مثلك يشخر؟ إياك أن تقول: أفسو وأضرط أيضاً مثل أي واحد.

قال عبد الحليم آغا كاتماً الضحكة، فانتفض الطويبي وشدّه من كمه هامساً:

- ماذا تقصد يا آغا؟

نتر عبد الحليم آغا الكم، وقال متوددا:

- أقصد ان ما ينطلي على المساكين لا ينطلي عليّ. قل لمعوض أفندي أن يبتعد عني، إلا إذا كنت تريد أن تفرد جناحيك على منطقة الحدود أيضاً.

- لا أحد يهدد الطويبي.

قال الطويبي متراجعاً، فربّت عبد الحليم آغا على كتفه مخاطباً بوقار:

- هذه نصيحة. أنا لا أهدد. معوض أفندي بهلول. يصلح نائباً عنك، يجوز، لكنه لا يصلح مديراً لناحية يملك ثلاثة أرباعها عبد الحليم آغا، وخاصة في منطقة الحدود. اجلسْ يا صاحبي واسمعني حتى أنتهي.

وسكت حتى امتلأ بالطويبي الكرسي الوحيد، وغاص هو وسط السرير، ثم تابع:

- في البداية اصطدمنا، وأنت كنت البادئ. عفْتُ لك الطويبة، والآن أشهد: تليق لك الزعامة، وتليق لها، كأنك ورثتها عن المرحوم وتربيت في حضنها. هذه الأيام صعبة يا ياصاحبي. الدنيا

جنّ جنونها بالحرب، أم أنك ما سمعت بهتلر؟ لماذا تظن استقبال المحافظ؟ ولماذا تظنني بقيت؟ حتى نشرب الوسكي أو نتفرج على امرأته؟ حتى ترقص امرأته معك التانغو؟ أنت الآن زعيم كبير. زعيم جديد. من نوع جديد، أقصد. هل تظن أني غفلت عن همس المحافظ؟ ما تعتقده أنت حرّ فيه. سمعت أنك تكرر مثل هذه الكلام دائماً. ضع يدك في يدي إذن قبل أن تنام وتصحو فتجد كل شيء طار منك. فرنسا الآن تلعب يا صاحبي. والحكومة تعرف قبل أن يصلك خبر: اللعب بكرة معك. ضع يدك في يدي لتنجو من لعب فرنسا ومن لعب الحكومة. كيفما دارت الطاحون، الزعامة باقية لي. أما أنت فلو طارت منك فلن تعود إليك. لو طارت منك تطير رقبتك معها. سامحني إذا قسوت، وأملي أن أسمع منك في الصباح ما هو أحلى من العسل.

وأدار ظهره مصطنعاً الشخير.

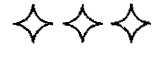

تقلب الطوبيي طويلاً، ليس فقط لأن عبد الحليم آغا أسهده بما قال، بل لأنه ما عاد يستطيع أن يتجشأ أو يفسو أو يضرط، كما يفعل في فراش ناهي أو غزالة. وفي الصباح مدّ كفّه الباردة إلى عبد الحليم آغا معاهداً، وبارك المحافظ العهد، وهمس في أذن الطوبيي وهو يودعه:

- لا يجوز أن تمشي هكذا وحيداً، حتى لو كان معك أو مع السائق مسدس. على الأقل من أجل الهيبة إذا لم يكن من أجل الحماية.

ظلت وصية المحافظ تلاحقه حتى غاب المصيف، وامتلأت السيارة بشبان مسلحين. أمر السائق أن يسرع، وصب اللوم على نفسه، ثم صبه على صادق العروضي الذي لم يذكر الهيبة ولا الحماية ولا المرافقين ولا السلاح. وحين ظهرت الطويبة استُلّت منه الحماسة والصفاء، فأمر السائق أن يتمهّل، وشتمت تمتمته عبد الحليم آغا والمحافظ، ورجلاً لا يعرف إن كان ازداد بين أمس واليوم قوة أم ضعفاً. وطفق يفكر في ذلك حتى توقفت السيارة تحت السنديانة، وأسرع إليه ابن نديم المكشوح وناهي وغزالة، كأنهم في سباق.

ضحك السائق، فضحك هو، وأضحكت ضحكته الآخرين، فمشى، لكن ابن نديم المكشوح قطع خطوته والضحك قائلاً:

- سيدي: مات الشيخ بركات.

قالت ناهي:

- لاقوه مخنوقاً عند مصب النهر في البحر.

قالت غزالة:

- قالوا: على سفوح الطويبة الغربية.

أطرق الطوبجي طويلاً، وصمتوا حتى جاءهم صوته من بعيد:

- هذا جزاء من يخالف الطوبجي بعد اليوم. قل هذا يا ابن نديم المكشوح عن لساني. أين صادق؟

قال ابن نديم:

- من صباح البارحة ما رآه أحد.

قال الطوبجي وهو يتابع سيره:

- لا أظن غيبته تطول.

وأشار بالانصراف، والشيخ بركات يتماثل له مشنوقا بزناره، يتأرجح في الفضاء، وصادق العروضي يطير من مكان إلى مكان، يختار أقوى الشبان، يدفع ببندقية إلى كل منهم، يحشدهم تحت السنديانة، يخطب فيهم بصوت الطويبي نفسه: أنتم فرسان الطويبي. واحدكم مثل أي دركي في المخفر أو عسكري في القشلة، كل مطلع شهر له راتب. أنتم حراس الطويبي وخدمه ويده الضاربه. اليوم مائة وبعد سنة تصيرون مائتين. اسمعوني. وتوقف الطويبي في عتبة الباب كأن الأمر يخصه وحده. وراح الفضاء ينخلع بزئير الفرسان، وخضر الصغير يهرج ويضرب يديه في الهواء، كأنه يستزيدهم.

الحورية

1

في وكنة أشبه بالوكنة التي كان يتهّجد فيها طاهر عوانة، التقى الطويبي بحورية المرهج، سوى أن وادي الطويبة أعتمّ وأدقّ من هذا النهر.

كان يتقدم فرسانه: إلى يمينه يخبط حصان صادق العروضي، وخلفه تبرق البنادق الجديدة التي اشترى أو أهدى إليه الكابتن آلان، وتتلامع أزرار البزّات الرمادية للشبان العشرين.

كان الموكب ينفخ الحماسة في القرى والمزارع المناصرة، كما يروّع الخصوم. كان يمعن مرة بعد مرة، أبعد فأبعد عن الطويبة. ومن جهة إلى جهة يخترق الجبال التي يقسم صادق العروضي أن إنسياً لم يسبق إليها.

هذه المرة التف الموكب حول السلسلة الخضراء، مراوغاً السفوح الساحلية، مؤثراً - كالعادة - المبيت في العراء، حين تخلو الجهة التي يكون فيها من زعيم ندّ. ولعل الطويبي كان سيتابع استعراضه المسلّح الأول حتى الحدود، ويداعب معوض أفندي بهجمة كاذبة، أو يبرم خلف الحدود صفقة جديدة من البنادق والمسدسات والرصاص، مروّياً الظمأ الذي ابتدأ يلهب أعماقه، منذ أنهى الكابورال الفرنسي وفريقه تدريب السرية الأولى من فرسان الطويبة.

بيد أن حورية المرهج ظهرت على المنعطف الذي يلوي عنق النهر، كما ألوى الطويبي عنق حصانه. انلجم الحصان، واقشعرّ الطويبي، وقد يكون صهل كما صهل الحصان، أو كما يصهل النهر.

أشار للفرسان بالوقوف، ولصادق بالاقتراب، وحكّ بالمهماز خاصرتي الحصان، وخيّل إليه أن النهر يضاعف صهيله كلما غدت تلك الصبية أقرب.

كانت تتوسط امرأتين أقل بياضاً منها، وخلفها تكوم عدد من الصبيان. قدّر الطويبي أن موكب النساء والصبيان وصل للتو، ولم يبدأ بعد الغسل والاغتسال.

تسمّر الحصان أمام حورية، وخلفه بخطوتين تسمّر حصان صادق. كانت حورية تقف راسخة، محتضنة ثدييها النافرين، تتفحص الحصانين والرجلين، حين احتبس لسان الطويبي، وألقى صادق التحية. ردت المرأتان، وتهامس الصبيان، أما حورية فسألت بجفاء:

- من أنتم؟ ماذا تريدون؟

قال صادق متباهياً:

- هذا سيدنا الطويبي.

قالت مستخفة:

- وأنت صادق العروضي إذن.

- أراكِ عرفت من نكون!

قال صادق ضاحكاً وحصانه يحاذي حصان الطويبي.

- ومن لا يعرفكم؟ أنت خاصة، صرنا نسمع بك أكثر من سيدك.

- اخرسي. من أنت؟

صاح صادق هاجماً، فأرخت ذراعيها وصاحت:

- قطع الله لسانك. اخرس أنت.

شبّ صادق وشب الحصان وشبت البندقية، لكن كف الطويبي أشارت والسؤال ينفلت منه:

- من أنت؟

- أنا حورية المرهج.

قالت باعتداد، ثم أومأ حاجباها إلى صادق العروضي وأمرا:

- قل لصاحبك: فورته لن تنتهي على خير.

قال صادق ساخراً:

- أنت من تزوجت أمك بعدما شابت وشبع منها أغوات الأرمن والأتراك معاً؟

اندفعت حورية صوبه هادرة:

- اخرس قطع الله لسانك. أغوات بلادك كلها لا يطلع لهم لحسة من قدم واحدة منا.

أشارت كف الطويبي لصادق، وخاطب حورية برقة:

- اهدأي يا بنت الناس.

- هذا من يخطف لك بنات الناس؟ ربّ كلابك يا طويبي.

- لا تخافي.

قال ضاحكاً وحصانه يقطع نحوها خطوته الأخيرة، فسألت متحدية:

- صدقت أنكم تخوفون فأرة؟

- اهدأي يا حورية. أشهد أنك حورية. متزوجة أم عازبة؟

سأل الطويبي وقد بدا كأنه يحلم، فقال صادق:

- طاب لها ياسيدي أن تعمل نفسها نمرودة، وتتأبى مثل أمها على الكبير والصغير.

قالت حورية:

- ها هو كلبك يعرف كل شيء. لا تفلت منه رائحة، لا زكيـة ولا نتنة.

لون الحلم وجه الطويبي وهو يهمس:

- مارددت على سؤالي؟

- عازبة.

قالت متشامخة.

- لو خطبتك من أهلك تقبلين بي؟

جاء صوته أقرب إلى النجوى، وحاصت عيناها ضاحكتين قبـل أن تشير أصابعها إلى المرأتين والصبيان قائلة:

- مالي إلا هؤلاء. تخطبني منهم؟

ثم أردفت مقطبة، وصوتها يتوه بين الهزء والجد:

- وتخطبني هنا، على حافة النهر؟ هذا لا يليق بالطويبي. كـم امـرأة تريد أن تتزوج؟

- تقدرين أن تقولي: الطويبي ما تزوج بعـد. عنـدي اثنتـان، نعـم، وعفت واحدة، وعندي أولاد، لكني عازب. ما هكذا يا صادق؟

قال وهو يلتفت حوله مستنجدا. وأجاب صادق بتكلف:

- مزحة حلوة يا سيدي.

نهرت حورية الطويبي:

- بنات الناس عندك وعنده مزحة؟

لجأت عيناه إلى النهر، وتماثل الفـرات ضـامراً ومعاتبـاً. أحكمـت شفتاه انطباقهما وهما تسميان نهراً باسم رملة ونهراً باسم حوريـة.

أخلد هنيهة للمويجات وحفيف الصنوبر ونبض قلبه. ودّ لو أن شفتيه تسمّيان أنهاراً أخرى سوف تأتي إليه. عادت عيناه إلى حورية، واجتاحه دعاء حار إلى أن تنفخ من روحها فيه وفي الفضاء، لكنها كانت تبتعد وصوتها يقترب:

- أنا لست بنت الشيخ توفيق علاط ولا بنت الشيخ ناظر ميمونة. لست أرمنية ولا مسيحية. استحوا وامشوا.

لحق الحصان بالصوت والطويبي يناشد:

- إذا رضيت بي يكون عرسك الليلة.

وقفت تحدق فيه، ثم سألت كأنما تُنازل:

- وإذا ما رضيت؟

أجفل الحصان، وجاهد الطويبي كي يكون صوته مسموعاً:

- قولي: ما الذي يرضيك؟

نظرت شزراً إلى صادق والفرسان الصامتين، وتراخت كلماتها:

- أنا لا أعيش على ضرّة، ولا مع صاحب كرش.

هزج الطويبي وهي تسير مردفة:

- ويكون موّالك من رأسك. إذا قدرت على شروطي خبرني. أنا أحضر لك بنفسي.

نادت أصابعه الفرنسان، وهمز الحصان، فخبّ قليلاً وهو يتجاوز حورية، ثم انطلق، وصادق يعجز عن اللحاق به، وقعقعة الفرنسان تملأ الفضاء. ولم يهدأ الموكب الهائج حتى أطلّ على السراي الصيفية لعبد الحليم آغا.

2

على الغداء ذكر صادق العروضي حورية المرهج، فزجرته عينا الطوبجي، لكن عبد الحليم آغا قال:

- سأموت في حسرة امرأة من هذه الأسرة.

وفي الإياب همس صادق في أذن الطوبجي، والنهر يبرق في ضوء القمر:

- عبد الحليم آغا هو نفسه من رمّل أم حورية، وظل يجري خلفها بعدما غرق وحيدها في النهر حتى هربت إلى اسكندرون. ربما ماتت أو تزوجت، لا أحد يعرف.

سأل الطوبجي بامتعاض:

- لماذا خبأت عني هذا طوال الوقت؟ ماذا تخبئ أيضاً؟

قال صادق مدافعاً الحيرة:

- ماجاءت مناسبة لأحدثك في هذا. عبد الحليم آغا بنفسه جرى خلف حورية. ابنه جرى خلفها وخلف أخواتها. لكن حورية طلعت أقوى من أمها ومن شقيقها الغريق. هذه المرأة مسترجلة. نساء هذه العائلة مسترجلات يا سيدي. لكن مزحتك كانت حلوة، مع أنك سمحت للكلبة أن تعوي عليّ. ظني أنه إذا كان في رأسها ذرة عقل تكون طارت بعدما سمعت منك ما سمعت.

قال الطوبجي مصطنعاً الحياد:

- كأني أراك مشغولاً بها.

قال صادق مستنكراً:

سيرتها وسيرة عائلها على كل لسان. لو تركت عبد الحليم آغا على راحته لحكى لك. ما عبرت مرة من هنا إلا سمعت عنها خبراً جديداً.

سكت الطويبي، وساء صادق أنه ظل صامتاً بقية الطريق. أما الطويبي فكان يستعيد صوت حورية، والصوت يضيع منه، كما تضيع منه صورتها. كان خوفه يكبر من أن تكون جادة، فتحضر ذات يوم إلى الطويبة، وهو لم يقدر على أن يفي بشروطها. ولعلها تحضر في غيابه، فيتلقفها صادق العروضي. وكلما اقترب من الطويبة، مسابقاً القمر، كان يقينه يكبر في أنها لم تظهر في دربه جزافاً.

ولولا ذلك لما قطع استعراضه عند مصيف عبد الحليم آغا، وتعجّلَ الطويبة هذه الليلة، لاوياً عن إلحاح صادق على المبيت، ليس لأن السير أضنى الخيل فقط، بل لكي يرى القوم موكب الطويبي في النهار، ويستقبلوه كما ودعوه.

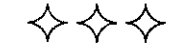

عزف الطويبي عن الناس إبان عودته. وشكوك صادق العروضي في أن سيده يفكر بحورية المرهج، تكبر كل يوم. لذلك أومأ مراراً إلى بنات رعد بك الموسى اللواتي تتغنى مواويل العتابا بحسنهن من قلب البادية، جنوبي البلاد، إلى رؤوس الجبال وقيعان الأنهار، كما أكد

صادق، مزيناً إيماءاته بما تعد به مصاهرة رعد بك الموسى، على الرغم من البعد، وربما بسبب البعد، مما يوطد الأركان التي يخشى أن تكون هذه الأيام بدأت تزعزعها.

لكن الطوبي ظل صامتاً، يذكّر كثيرين - قبل صادق العروضي بطاهر عوانة حين زلزلهم بمرضه أو بالخضر أوبشاراته على الطريق الجديدة إلى الدنيا والآخره.

ولم يلبث صادق أن أخذ يجرو على أن يفكر في أن الطوبي قد يخرب كل ماشيد، إنْ لم يخرج مما هو به، منذ صادف حورية المرهج.

في نهاية ذلك الصيف جاءت المطرة الخريفية الأولى أبكر وأغزر من العهد بها، فاضطر الطوبي إلى أن يبرح مطرحه تحت السنديانة، حيث صار يبيت أيضاً في الأسبوع الأخير، تحرسه عيون الفرسان.

وكانت ناهي وغزالة تتهامسان حائرتين ومشوقتين إلى الليالي التي كان ينتقل فيها بينهما. وقد يكون هذا ما جعلهما تستبشران بالمطرة، وتتغامزان. إلا أن الطوبي خاطبهما بعد العشاء الذي تسابقتا في إعداده:

- ناما سوية في غرفة ناهي. في الصباح، حتى لو لم تصح السماء، يمشي مع كل واحدة ثلاثة من الفرسان مع الخيول والولدين. كل واحدة تجمع الآن كل ما يلزمها ومالا يلزم، وتبقى في بيت أبيها، لا تخرج منه حتى تموت إذا لم أنادها. أما بنت رملة فتعود إلى أمها.

وكما لم تصدق أي منهما، وكما لم يصدق صادق العروضي، كان الطوبي غير مصدق أيضاً، يتكهن حول رحيل الزوجين والولدين ولحاق بنت رملة بأمها، شأن كل من يتكهن في الطوبية أو في طوبية

الشعرا أو في الطويبة الشرقية، وحيثما وصل الخبر. ولم يكن أحد سواه يدري بذهاب ابن نديم المكشوح إلى بيت حورية المرهج.

عصر اليوم التالي لخلو البيت أفاق الطويبي من قيلولته على وقع حوافر حصان. استوى في السرير يخشى أن يكون رسوله قد عاد مخيباً. نط من السرير وجرى إلى الباب، فإذا بحورية منتصبة فوق الحصان. هفا ذراعاه إليها، فقفزت مثل أي من الفرسان، وابتسامتها تعرض. تراخى الذراعان وهي تتجاوزه، ثم تبعها دون أن ينبس أحدهما، وقبل أن تجلس دخل صادق العروضي، فأمرته عينا الطويبي بالخروج، وهمست حورية:

- ها قد لبّيتك على الرغم من أنك ما وفيت بوعدك. هذا دين يبقى لي في عنقك مدى العمر.

اقترب من كرسيها يرتعش، ولهج مقسماً على الوفاء. نأت قليلاً وهي ترتعش، وبدت مثله مشوقة وخائفة. ابتهلت أصابعه إليها، وطيبها يعبق. أرخت رموشها كأنها تدثره، وتناثر همسها:

- ياويلك ياحورية! كيف مشيت إلى حتفك بنفسك؟ أنت من طينة وأنا من طينة فما الذي جرى؟ الله يعينني ويعينك.

تراجع الضياء وأصابعهما تتشابك وتتنافر. ولعله استطاع قبل أن تغيبهما العتمة أن يلثم شعرها أو يمرغ فيه وجهه. ولعلها كانت قد دفعته أو جذبته ليختفي في حضنها، حين هجم من الباب ضوء اللوكس يسبقه صوت صادق العروضي:

- حلَّ العشاء ياسيدي.

أجفل الطويبي ونأى عن حورية مطرقاً، فيما علّق صادق اللوكس متباطئاً، تلاحقه نظرات حورية، وتقرأ في قفاه العريض هزءاً ووعيداً. وعندما واجهها صدره أجفلها ضيقه البالغ وصوته يسحج:

- ألا يأمر سيدي بشيء؟

نفت هزة من رأس الطويبي، وحورية تقف وتتهادى نحو الباب آمرة بغلظة:

- في المرة القادمة تستأذن يا صادق بالدخول، ولا ترفع عينك عن الأرض إذا كلمت سيدك أو كلمتني. اخرج الآن وانتظر قرب الباب حتى يناديك أحدنا.

رفع الطويبي رأسه مشدوهاً، ونظر إليها ببله، كما كان صادق ينظر، ثم صاح وهو يقفز:

- ما سمعت؟ أغلق الباب خلفك.

وبرم تحت اللوكس يلاقي صوته الذي ضاع منه على ضفة النهر، لحظة واعدته حورية. واندفعت ضحكته كأنها صهيل الحصان يخبط الآن على ضفة النهر. وبرمت حورية خلفه، لكنها لم تستطع اللحاق بالحصان الذي كان ينجلي عمن راودت منذ بدأت تضيق بامتلاء وركيها ونفور حلمتيها. ولم تلبث أن تكومت، تحت اللوكس وفي لجة النهر، تنتظر الرجل الذي نزل الهويني محمحما مثل حصانه. وانقادت إلى كف لدنة حارقة، والحلمتان المنتصبتان تتعجلان شفتين وأسنانا. وفيما كان يتناثر ملء السجادة فستان وقمباز وسروالان،

كانت هي تغرق، مثل الطويبي، في ملوحة الحليب والدمع والضوء، وفحيحٌ ينادي النهر الذي ينأى والحصان الذي عاد مهراً يرفس.

3

نادى الطويبي بالناس أن حورية هو، وهو هي. وأمام البيت ألف أن تنطره كل مساء معطرة، تتأبط ذراعه، تقوده إلى الماء الساخن، تغسل روحه مثل جسده، تطعمه وتسقيه الماء الزلال، تستقبل الزوار معه. ومثلهم ينقاد إلى سطوتها هانئاً ومسلّماً لمن نشأتْ - لاريب - تسوس الناس. ولا يكاد يخلو لهما البيت حتى تهصره بين فخذيها القاسيين، وتطلق شهيقه، فليفظ الروح على صدرها، وينام.

أما صادق العروضي فلم يعد يجرؤ على أن يبعد عن الطويبي، خوف أن تحكم حورية قبضتها عليه تماماً. كان يطأطئ لها، وهو يسوط نفسه على أن تضمر سراً، وتكشف له ما تضمر، قبل أن يفوت الأوان.

رويداً بات يشغله أن يجد سبيلاً إلى زواج الطويبي من أية امرأة كانت. ما عاد يهمّ أن تكون واحدة من بنات رعد بك الموسى أم لا. ولما استبد به ذلك ظهر معوض أفندي معلناً استغناء الحكومة عنه، وشكه في أن يكون عبد الحليم آغا خلف ذلك.

قال الطويبي غاضباً:

- انس عبد الحليم آغا. ما كان لك أن تقترب من جماعته، وأنا فاتني أن أنبهك. أما صادق فما بقي له رأي ينفع.

قال معوض أفندي مسترضياً:

- لكن تعبنا لم يضع ياسيدي. صار لنا هناك جماعة، ولو أنها صغيرة.

قال الطويبي:

- لسنا فيما فات.

كان صادق ينصت سعيداً بظهور معوض أفندي، على الرغم من غمزة الطويبي. وبدا له الطربوش على رأس معوض أفندي أبهى من سيدارة مدير الناحية وأكبر جلالاً وضرورة. وعندما قدر أن دوره قد حان اندفع يزين خروجهم - الثلاثة- سوية إلى من استجاب لمعوض أفندي. وطفق يعيد في ذلك ملتفاً على حذر الطويبي من عبد الحليم آغا. ولعل صادق كان يأمل أن ينتزع بذلك الطويبي من حضن حورية ولو قليلاً. غير أن عبد الحليم آغا باغت بدعوته الملحة إلى أن يحضر الطويبي إلى المدينة، الليلة قبل صباحها.

شجّع معوض أفندي- مثل حورية- على تلبية الدعوة. وعندما اختاره الطويبي مرافقاً، تبلبل صادق منكراً أن يعني ذلك تقديماً لمعوض أفندي وتأخيراً له، ثم غادر خائفاً من انفراد حورية به، ومن عيون الناس التي باتت تسلقه مسائلة عن سطوته الأولى.

أما معوض أفندي فقد أسرع من مكتب عبد الحليم آغا إلى منطقة الحدود، حيث أمر الطوبجي أن يجهر بالدعوة له، على جانبي الحدود، شرط ألاّ يقترب من جماعة عبد الحليم آغا.

في الآن نفسه أسرع الطوبجي من مكتب عبد الحليم آغا إلى بيروت. ومن مكتب المفوض السامي أسرع إلى الطوبية، ملوحاً بالعصا المذهبة التي أهداها المفوض له، وبالكرسي التي تنتظره في البرلمان، بعدما اتفق الزعماء الوطنّيين على إدراج اسمه في قوائم مرشحيهم، وبارك المفوض هذا الاتفاق.

هللت حورية، فهلل الجميع لرجعة الطوبجي الظافرة. واحتار صادق فيما جعل الطوبجي يعفّ عن كرسي البرلمان في الدورة الماضية، ويقبل عليها هذه الدورة.

ولعل ذلك ما جعله يبتهج - خلاف الجميع - عندما أجّلتْ الانتخابات لسبب ما. وراح ابتهاجه يتضاعف وصوت الشيخ ناظر ميمونة يتردد - منذ عادت إليه غزالة - أعلى وأوجع.

كان الضيق يسفر يوماً بعد يوم في نبرة ومحيا حورية. ولبث صادق يكمن حتى صاحت به - وصاح الطوبجي إثرها - يسألان عما ينتظر، فشرع يرسل الفرسان إلى الطوبية الشرقية، ولم يعد الشيخ ناظر ميمونة يصحو إلا على اقتلاع أشجاره، أو مصرع دوابه، ثم لم يعد ينام إلا على صوت الرصاص يشقُّ جدران بيته وليله.

وحين قدر صادق أن الوقت حان، أمر الفرسان أن يحفروا وسط الطوبية الشرقية قبراً كبيراً. ومن دون أن يستشير الطوبجي أو حورية، دخل بيت الشيخ ناظر ميمونة في منتصف الليل، وخاطبه:

- بالذهب الذي دفعنا لك مقابل بنتك تستطيع أن تشتري قصراً في بيروت أو الشام، وتقضي بقية عمرك مرتاحاً. أما غزالة وابنتها فلا شأن لك بهما. وإذا عزّ عليك الرحيل فهات الذهب، والقصر جاهز.

قفل صادق بالبشرى، ووشوش الطويبي مذكراً ببنات رعد بلا موسى، مشدداً على الحاجة إلى من يعوض ما فُقِدَ بفقدان الشيخ ناظر. بيد أن الطويبي الذي أثنى بحرارة على صادق، بدا حائراً وتلعثم وهو يذكر حورية، فعجّل صادق:

- هذا امتحان لها ياسيدي. امتحان صغير. إذا كان الطويبي أغلى عليها من نفسها، تسبقك إلى قصر رعد بكك

قال الطويبي معجباً وخائفاً:

- آه منك يا داهية!

وتعلقت عيناه بالعصا المذهبة المعلقة في صدر الجدار المقابل، فأسرع إليها صادق، وبدا للطويبي وهو يعود بها ساحراً يلاعب أعاجيب وأحلاماً في ساحة من ساحات القدس أو الشام أو بيروت، وازداد يقيناً من ذلك والعصا ترتجف بين أصابع صادق، وتطلق حمائم بيضاء ومناديل ملّونة وضحكات وآهات.

كانت حورية ترقب صادق في الآونة الأخيرة متوجسة. وعندما بدأ الطوبجي يلغو بالخسارة الفادحة بالشيخ ناظر، وبالعوض الوحيد برعد بك الموسى، ويذكر ممازحاً بناته الفاتنات، قالت جازمةً:

- صادق العروضي يشير بالزواج من واحدة منهنّ.

تطامن الطوبجي مثل طفل مذنب، وهفا ينشد مغفرة ويتمتع:

- اتركينا من صادق، أنت، مارأيك؟ القول قولك وحدك، لا قول صادق ولا قول الطوبجي نفسه.

فابتسمت واحتضنت كفه مقررة بحنان وحزم:

- أروح أنا وصادق نخطب لك، ونزوق العروس. أنا أختارها لك بنفسي. لكن هذا البيت لي وحدي. لا تدخله ولا تدخل الطوبجية امرأة غيري. ما عدا ذلك - إن شاء الله- أزوجك كل سنة واحدة، ويكون للطوبجي في كل دورة بيت وامرأة وأولاد، من هنا إلى بلاد العجم والسودان.

منذ تلك الخلوة تضاعف ولهه بحورية، كما تضاعفت طأطأة صادق لها وخوفه منها. وفي قصر رعد بك الموسى الشتوي، في أول الميدان من حمص، بين ما يشبه قصور الشام والطوبجية في الآن نفسه، قدرت حورية أن صادق العروضي ألف أن يزور الدورة كلها، لا القصر وحده. وشكّتْ في أنه يعدّ لزواجه هو أيضاً من إحدى الفاتنات الثلاث. وربما كان ذلك ما تركها طوال الليل قبل أن تسمّي شهلا،

على الرغم من أنها صغرى البنات، وأقلّهن حسناً. وكان اعتراض صادق يقوي الشك في أن شهلا من تستهويه.

بدا رعد بك الموسى كأنه انتظر طويلاً مصاهرة الطوبجي. وقد يكون - كما خمنت حورية- سعياً منه ليكيد بالطوبجي المنافسين الذين يكيدون له من المدينة إلى البادية، أو لأن صيت الطوبجي اجتذبه، وهو المفتون طوال عمره بأي غريب أو مدهش. كذلك هان على حورية ما كان يربكها من اشتراط بقاء شهلا بعيدة عن الطوبجية. بل إنّ رعد بك الموسى هتف وهي تلمح إلى ذلك:

- للطوبجي منّي ومن شهلا قصر على يمين هذا القصر، وأكبر منه.

فكبّر صادق، وأقسمت حورية أنها من سيبني قصر شهلا، ولعلع لسانها بزغرودة طويلة، ثم أشارت إلى شهلا، ولاقتها منغمة صوتها:

- أنت أختي الصغيرة، لا ضرّتي.

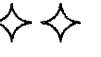

نُسي قصر شهلا، ولم يعبر الطوبجي بعروسه بعد العرس مرتين خلال شهرين، إذ شغله المبشرون المسيحيون الذين تكاثروا فجأة حول الطوبجية، فرنسيّين وغير فرنسيين. وبدا كأنه لم يألفهم منذ حلت فرنسا محل تركيا. ولم يخف على حورية وعلى نفسه أن يخشى الآن أن يزاحموه على من يواليه وعلى من يعاديه.

كانت قد أخذت تقلقه أيضاً المعركة التي لم تعد صامتة بين صادق وحورية، منذ أصرّت- بعيد عرس شهلا- على أن يكون للطوبجي

صندوقه الخاص، وأن يكون الصندوق ومفاتيحه في سرها، وأن يشارك ابن نديم المكشوح صادق العروضي في مسك الدفتر الهائل الذي ينظم من الآن فصاعداً كل قرش يُجبى أو يُنفق.

على حين غرّة، والطويبي لاهٍ في ذلك، أعلنت الحكومة موعداً جديداً للانتخابات. وجاء من يدعوه إلى الكابتن آلان، فساءه أن يلبي وحيداً، وافتقد صادق الذي تؤكد حورية أن غيباته في حمص أو حول الحدود أخذت تتواتر، فلماذا؟

كان الطويبي - لاحورية- من يتساءل هذه المرة، وهو يتباطأ أمام مكتب الكابتن. وكان لا يزال يعالج السؤال عندما أعلن الكابتن غضبه مما يفعل فرسان الطويبي ضد المبشرين.

فكّر الطويبي في أن صادق يكرر مع المبشرين ما فعل بالشيخ ناظر ميمونة، وأن ذلك هو سبب غيابه. لكن المبشرين هنا، حول الطويبة، وليسوا هناك حول حمص أو حول الحدود، فلماذا؟

انتزعه صوت الكابتن الجافي وقد راح يذرع سجادة المكتب:

- عندما أكلمك تسمعني جيداً. في البداية أرسلناك إلى الرقة، ثم أعدناك. ولولا مساعدتنا ما وصلت إلى ما أنت فيه اليوم. ونحن قادرون لو لزم الأمر على أن نرسلك من جديد إلى الرقة وإلى ما هو أبعد منها.

قال الطويبي بحدة:

- أمهلني حتى أعالج الأمر.

عاد الكابتن إلى كرسيه، وقال وهو يلجم انفعاله:

- ماوصلنا إلى هذا بعد، ولو لم يشكُ الخوري امطانيوس ثلاث مرات ما طلبتك.

سرحت عينا الطويبي عبر النافذة، وتسلل صوته وانياً:

- الخوري امطانيوس؟ أوه! أنا نسيته. كيف لا ينساني؟

قال الكابتن معاتباً:

- أنت نسيته ونسيت غيره وركضت إلى حضن عبد الحليم آغا ورعد بك الموسى. يبدو أنك تصدق هؤلاء الذين يتسمّون بالوطنيين. ظفر الخوري امطانيوس وظفر أي مبشر يهمني أكثر من هؤلاء كلهم. لا تنسَ أنني أولاً وآخراً مسيحي.

تساءل الطويبي محاذراً:

- من لا ينسي؟

أمر الكابتن بالشاي وقال متكلفاً الود:

- بدلاً من أن نضيع وقتنا بهذا، أمامنا الكثير الذي يمكن أن نقوم به سوية.

تساءل الطويبي وحذره يكبر:

- كيف؟ ها أنت تبدو غاضباً من اتفاقي مع الوطنيين. وبالأمس كان المفوض يبارك هذا الاتفاق.

أكبّ الكابتن بصدره على زجاج المكتب وهمس:

- عبد الحليم آغا ورعد بك الموسى وغيره من زعماء الوطنيين باعوا بالأمس اسكندونة لتركيا، واليوم يبيعون فلسطين لليهود، وبكرة يبيعونك أنت، ولكن وقت لا تجد من يشتريك بقرش. لا تؤاخذني. يبيعون ويشترون وينكرون ويقبضون. أمس باركنا

اتفاقك معهم. اليوم لا بكرة يجوز أن نبارك. هذه هي السياسة. هذه هي مصلحة فرنسا ومصلحة هذه البلاد. وأنت مصلحتك معنا، مع مصلحة البلاد، لا مع من يتشدقون بالوطنية ويبدلون جلودهم كل صباح.

- تريدني أن أصدق أنه ما بقي لكم بينهم صاحب؟ حتى بين من حبستم منهم أو نفيتم، لكم أصحاب وأحباب.

- نعم. وللانكليز فيهم أحباب وأصحاب. للأتراك، للروس، للألمان، للأمريكان، أيضاً. أحباب ساعة وخصوم ساعة. ظننتك بدأت تفهم بالسياسة، فتش عن مصلحتك. آن الآوان.

- أظنك على حق.

قال الطوبيي مستسلماً، ووقف مستأذناً، فشيعه الكابتن باحترام بالغ، وراحت العصا المذهبة تقرع البلاط كأنها تبحث عن أصابع صادق العروضي، والطوبيي يضيعهما كما يضيع الطريق إلى مكتب عبد الحليم آغا.

فجأة وجد نفسه وسط المكتب، يشكو تهديد الكابتن وتحريض الخوري امطانيوس وزحام المبشرين، فإذا برزمة من الجرائد تندفع إلى صدره، وعبد الحليم آغا يقاطعه يحنق:

- خذ اقرأ ما يكتبون عنك. حتى في القاهرة كتبوا.

افترّ ثغر الطوبيي أسيان وهو يحتضن الجرائد متسائلاً:

- عنّي؟ ماذا يكتبون؟

قال عبد الحليم آغا وعيناه تسعفان أصابعه وصوته في التهويل والسخرية:

- بدعة جديدة في الدين. تقسيم جديد للبلاد. مجنون يؤسس دولة. عصابة مسلّحة وغيره وغيره. اقرأبنفسك. أعرف أنك بالكاد تفك الحرف.

وضع الطوبيي الجرائد على الكرسي الملاصق، ثم قال ضاحكاً:

- أنا لا أحمل الشهادات التي تحمل. لم أتعلم في مدرسة ولا في جامعة. رحم الله الشيخ بركات. من علمني حرفاً صرت له عبداً. صحيح يا عبد الحليم آغا؟ أنت نفسك علمتني الكثير، والآن تعلمني. هل تذكر دروسك في البيت الصيفي للمحافظ؟ الكابتن آلان قبل قليل كان يعلمني. كلكم تعلمونني. ليتك يا صاحبي قرأت ربع ما قرأ الطوبيي. ليتك تحفظ عشر ما يحفظ، ولكن من الكتب، لا من الجرائد. أعدك: من الآن سأتعود على قراءة الجرائد. يجوز أن جرائدك قصدت غيري. سمعت أنه ظهر شمالي حلب، بين الأكراد، من يدعو إلى طريقة جديدة في الدين، ويجوز: دولة جديدة. أما أنا؟

- أنت هكذا دائماً: تتمسكن. سمعت بمن يتمسكن حتى يتمكّن؟ لا ياصاحبي. الطوبيي باسمه. هل من طوبيي غيرك هنا؟

- يجوز. يجوز أن تكون أنت نفسك طوبيي من غير أن تعلم.

- العبْ بالكلام. العب بعقلي. أعرف أنك أكبر علماً وفهماً من كثيرين ما كفتهم الدراسة هنا فذهبوا إلى باريس أو لندن، وما عادوا بمثل ما عندك. ولكن قل لي: ماذا تفعل؟ الناس راجعة من

الحج وأنت الآن تحّمل حمائلك إليه؟ الوطنيون غير راضين، وفرنسا نفسها غير راضية، والغضب منك يـزداد كـل يـوم، والانتخابـات قريبة. لولا إخلاصي ما كنـت أقـول لـك هـذا. ولـولا أن آخريـن عارضوني لكنت أسمعتك هذا الكـلام قبـل شـهر. غـيري يقـول: جهنّم تحرقه. اتركوه.

قال الطويبي كأنما يخاطب نفسه:

- أنت أدرى الناس بما أفعل من شبابي حتى الساعة. ليتكم جميعـاً تفعلون مثلي. خلال سنين قليلة ما بقي في جماعتي كما تعلـم مـن يكذب، حتى لو قطعت رقبته. ما بيننا من يشتم الرب وهو يمزح أو يشاجر. ما بيننا من يحلف كلما دار لسانه في حنكه حتـى لـو كـان صادقاً. ماذا فعلت؟ وحّدتُ عشيرتي؟ حَميـت جمـاعتي منـك قبـل غيرك؟ نحن اليوم قلب واحد، عائلة واحـدة، لا نبيـع بعضنـا بمـال قارون. هذا ما تسمّيه جرائدك دولة؟ مثل هذا الكلام سمعته مثلـي قبل سنين. مئة فارس صاروا عصابة؟ انسوا الطويبي قليلاً والتفتوا إلى الخوري امطانيوس. التفتوا للمبشرين.

قال عبد الحليم آغا متراجعاً:

- ماكتب منّا عنـك غـير أقّـل القليـل. الجرائـد الموالـية لفرنسـا وبريطانيا هي التي بدأت. جعلوك مسخرة كما جعلوك عجيبة. نحن نشمّ رائحة كريهة وراء هذا كله. إياك أن تكون تلعـب في الخفـاء مع فرنسا أو غيرها. الشتيمة في الجرائد مثل المدحة، ليست دائمـاً عداوة أوصداقة. والرائحة الكريهة انتشرت قبل هذا الذي تلوكه الجرائد. لذلك قلنا لك: تعـال إلى صفنـا. لذلـك قبلنـا بـاسمك في

قوائم المرشحين الوطنيين للانتخابات، وها نحن نؤكد لك هذا اليوم، فأكّده لنا.

نهض الطوبيي حزيناً، وتناول الجرائد قائلاً:

- رجعت تكلمني كأني فلاح عندك. أنا الطوبيي يا عبد الحليم آغا. عمري ما نقضت الوعد. ويوم أريد أن ألعب لن تمنعني، لا أنت ولا غيرك. لا فرنسا تقدر على أن تمنعني ولا غيرها. يوم أريد أن ألعب لا يهمني السرّ ولا الجهر. الدول لها أصحابها يا صاحبي، وأنا لست منهم، ولكن لو أردت أصير. قلْ هذا للجميع: عروشكم كلها لا تملأ عيني.

وخرج مصمّاً عن نداء عبد الحليم آغا ووداعه. وتعاظم انقباضه حتى دفن رأسه في صدر حورية، فانقلب الانقباض خوفاً من أن يكون الجميع ينصبون له الأشراك. وسألها وهو يكاد يبكي عما إذا كان يمكن للحلم أن ينقلب إلى كابوس، وسخر من الدول جميعاً، وشتم ملوكاً ورؤساء ممن لم تسمع حورية بهم من قبل. وحين سكت وأخذت أنفاسه تهدأ، دسّت أصابعها في شعره، وشتمت الكابتن والمفوض وعبد الحليم آغا والخوري امطانيوس والانتخابات والوطنيّين والخائنين. وأقسمت برحمة شقيقها الوحيد الغريق أن الطوبيي أكبر من هؤلاء جميعاً، بل هو أكبر من هؤلاء جميعاً، بل هو أكبر من حكام العرب والعجم والمسلمين واليهود والمسيحيّين. وتساءلت عما إذا لم يكن عليه أن يضاعف الفرسان، أو أن يهيء ما ينفع في غد مبهم، وهو الذي لا زال لا يملك من الدنيا سوى الصندوق الذي تخبئ.

كان الليل قد أوشك أن ينتصف. ومثلما أرهقته الشكوى أرهقتها، فصمتا ينشدان النوم. وترجّع في سمع الطوبي صوت صادق العائد من غيبة طويلة، يحذّر من غدر الزمان، يحرض حورية وحورية تحرضه وهو يحرضهما على أن يعدّ كل منهم للمستقبل عدّته. واختلط الوقت عليه بين ليل صيفي ينتصف الآن، ونهار شتوي قد انتصف منذ سنين، والقرع يتواصل على الباب.

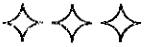

4

منذ شرع صادق يفكر في زواج الطوبي من غير رملة، صارت كل صبية يستميله صيتها أو حُسْنها عروساً ممكنة لسيده. ولئن كان يتودد إلى إحداهن، أو يشتهيها، فإنما كان يفعل من أجل سيده، شأنه في كل أمر، حتى داهمه خطر حوريَة المرهج.

كذلك هيأ جيداً كي تكون كبرى بنات رعد بك الموسى - أو الوسطى - العروس التي تعينه على حورية. أما شهلا التي لم تكمل السادسة عشرة، فقد هفا إليها كما يهفو إلى ابنته. وأشفق عليها من جسم الطوبي أو منافسة حورية.

وقد يكون ذلك ما جعله يفكر أيضاً في تزويج الطوبي من ابنته هو، ولكن بعد سنتين أو ثلاث، حين يكون عودها قد اشتدّ، ويكون عود حورية المرهج قد تقصّف.

غير أن حورية انتزعت منه شهلا، وتركته- وهي تزفها إلى الطويبي- ينطوي على برحائه، يستعيد ما كان يخصّ به ذات الضفيرتين المذهبتين من لهفة أو ممازحة، وما كانت تخصه به من غنج أو معاتبة أو حرد. وليلة العرس ألوت بروحه نظراتها التي لا بد أنها كانت تلوم أم تستغيث أو - على الأقل- تعاتب، فتسلل من الحشد الصاخب، يعض على شفتيه، ويحبس دمعة.

بين العرس وعودة الطويبي الأولى إلى عروسه أقسم صادق مراراً على ألا يعود إلى قصر رعد بك الموسى، وعلى ألا يعبر بالميماس أو حمص حتى تعود إليه شهلا، لا لينتزعها من الطويبي، بل ليرد على حورية المرهج كيدها. ولئن اختلج وهو يحلف - لأول مرة- بأيمانه القديمة، قبل أن يلحق بالشيخ بركات و بالطويبي، فقد بات لا يبالي بذلك، يميناً بعد يمين، وبات أجراً على أن يستبين انتقامه من حورية وحلمه بشهلا.

في عودة الطويبي الثانية إلى عروسه ألحّ على صادق بمرافقته. لكن صادق تعلل بورم ربلتي ساقيه. واضطر إلى ملازمة بيته يومين، متحاشياً عيون حورية، وابن نديم المكشوح وابنته التي بدأ يزهد بتزويجها من الطويبي. وما إنْ عاد الطويبي أسرع مما كان يحسب - بل أسرع مما كانت حورية نفسها تحسب- حتى استأذن بالسفر إلى الحدود، دون أن يذكر معوض أفندي.

كيف تلوت به الطريق من الحدود إلى حمص، ومن بيت معوض أفندي إلى قصر رعد بك الموسى؟ وبم تعلل للطويبي؟ كيف عادت

الطريق تتلوى به، مرة بعد مرة؟ وبم كان يتعلل كل مرة لنفسه أو لرعد بك الموسى أو لنظرات شهلا؟

فجأة جبهته الأسئلة، إذْ تبين في نظرات حورية شكوكاً ساخرة وفاضحة. وقد يكون ذلك ما حثه على أن يسعى للانفراد بشهلا، بعد أن كان يكتفي بلقائها في حضرة أبيها، أو بتحيتها مع شقيقتيها من بعيد. ولما انتصر على خوفه وخوفها، وأشرقت له كعهدها قبل الزواج، أخرس الأسئلة، وتحدى نظرات حورية، وطفق يزوق لنفسه وعداً قريباً ومحتوماً.

كان يغدو يوماً فيوماً أشبه بالمنوّم، ينادي في سره الطويبي بطاهر عوانة، يضحك لطيف الشيخ بركات، يرمي بنضوات الخيل في الهواء، يختفي في سواد الفحم، يقطع الدروب على أية امرأة إلى الأحراج، يخلع قرني تيس ويركب معزاة، يعود وعيناه تأتلقان إلى طفولته وشبابه، يعرّف شهلا وحورية معاً براعٍ وحداد وحارس وبيطري، يأمر الفرسان والخوري امطانيوس والمبشرين والأنوار الذين صاروا عشرة، يضرب ابن نديم المكشوح بدفتر سميك، يحضن صندوقاً حديدياً أكبر من الصندوق الذي تحتضن حورية، يلوي الجهات إلى شهلا، يغيب عن الطويبة كلما حلا له أن يغيب، ينتزع من البرلمان كرسياً لنفسه تتلطّى بكرسي الطويبي. ولما ضبطته وشهلا شقيقتها الكبرى، أفاق من أضغاثه، وبارك مؤامرة عيون الشقيقتين، وأنكر على أصابعه أن تكون لم تلمس شهلا حتى الآن.

كانت شهلا أول من لاقاه هذه المرة على الباب الشرقي الذي يقود إلى جناحها من القصر. وقبل أن ترد تحيته أعلنت غياب أبيها. فأومأ إلى البهو الصغير خلفها وقال:

- بودي لو أرى مطرحك يا شهلا: أين تجلسين وحدك، أين ..

- على مهلك. هذا مطرح الطويبي. نسيت؟

قالت ضاحكة ومقاطعة.

- أنا والطويبي واحد. نسيت؟

قال ضاحكاً وعازماً، وترك لسانه يتبذل ويضاحكها حتى باغتهما صوت:

- وصل أبي. من يرى هذه الوقفة ماذا يقول؟

كانت شقيقتها الكبرى تنبق وتختفي وهو يهمس:

- لا تقفلي الباب الليلة. عندي لك كلام يساهرك حتى الفجر.

قالت ملاعبة حاجبيها:

- أختي تنام عندي في غياب الطويبي. إياك أن تقترب.

- أودع والدك قبل النوم بحجة رواحي في الفجر. لا تنامي حتى أحضر.

قال آمراً كأنه يخاطب واحداً من الفرسان، ومضى خفيفاً يقلب حمرة المغيب بسواد مطبق.

قبل صياح الديكة في زرائب القصر البعيدة نهض نشيطاً. تمضمض بأناة ثم كرع ما تبقى من الكأس، ومشى مطمئناً إلى جناح شهلا التي تركت الباب مواربا، وراحت تتقلب مسهدة حتى سمعت وقع خطاه.

كان الخفيف القادم يكورها في السرير ويكتم شهقتها. أطبق صادق الباب، ولم يخطئ غرفتها. خلع حذاءه ورمى ثيابه كأنه يفعل في بيته، ثم اندس في السرير يفحّ:

- أين تنام أختك اذن؟

- في الغرفة الأولى. ماذا تفعل؟

قالت من خلال شهقاتها التي تلاحقت وهو يضمها.

- ظننت الطويبي علّمك.

همس وهو يلحس أذنها، وأصابعه تبحث عن السروال، لكن جلبة أيبست لسانه وأصابته، وكتمت أنفاس شهلا. وطال بهما الموات حتى انصفق باب، فأزاح اللحاف، وراح ينهرها بعنف ويسترع الفستان لاغطاً:

- بقينا وحدنا يا حبيبتي. أختك بنت حلال. لن أنسى لها هذا الفضل. هل تصحو مبكرة كل يوم وتتركك وحدك؟

كانت أطرافها قد تثلجت. وعلى الرغم من أن لعابه تمرغ فوقها، من أصابع قدميها إلى شعرها، فقد ظلت ساكنة حتى طوق عنقه بساقيها. عندئذٍ تباعد جفناها. ومن خلال الدموع التي تمازجت

بالضوء المنسرب من أسفل الباب، تلامح لها شعر صدره كثيفا قاسيا. وفجأة أحست أن طعناته تتلاحق في فؤادها، وأنها توشك أن تغرق. تمنت أن يتريث حتى تتفرج على عريه وعلى عريها، إلا أن جفنيها انطبقا، والروح عاد إليها من جديد، فشرعت تئن وتبكي، ثم تشهق وتضحك، وهو يهوي فوقها، وساقاها تنزلقان فوق ظهره، وتستقران على ساقيه.

بعد لأي تململ، وأوشك أن ينزاح من فوقها. تشبثت أصابعها بجلده مناشدة أن يظل غطاء. تناولت يمناه اللحاف من على الأرض. دثرها وهم بالنهوض.

رفست اللحاف وشتمته. اقترب فاجتذبته فأذعن. وعلى وقع أنفاسها الهائجة أغفى وأفاق، فإذا بها تتوسد ذراعه وتتلوى.

انقلب على ظهره فرفعت رأسها قليلاً، وأقبلت تتملّى. شدت شعر صدره بقسوة. أنَّ وباعد ساقيه. هبطت إلى عانته وشدت الشعر بقسوة أكبر. أنَّ وألحم ساقيه. قلّبت العضو الذاوي وضحكت. انقلب على جنبه واندلق شعرها على قفاه. وعلى الرغم من الغبش راعها شعر كثيف فوق دبره، فشهقت ولكزته. استلقى وهي تلتفت مستجدية الضوء. قفزت إلى الباب لكن الضوء ظل شحيحاً. تقدمت إلى الباب وألصقت به أذنها. أعادته مواربا كما كان منذ المساء.

انهمر الضوء وصوت العصافير، ولفحتها نسمة باردة. أسرعت إلى السرير وراعها العضو الذي يعلو ويسقط. غرقت في الضحك وهي تقبض عليه. شخر صادق وشد شعرها إليه. صاحت متوجعة وهو ينبطح فوقها.

ومثلما أقبلت عيناها تتمليان قبل قليل، راحت أذناها تفعلان الآن. وطال بهما ذلك حتى انتفضت هلعة، ودفعته بعيداً وعنياها تنصلبان على الباب. نطّ من السرير إلى وسط الغرفة، فأوقعته نطّة فتى واستغاثته. وقف متهالكاً وهي تلطم. تعثرت قدمه بثيابها وثيابه وهويلعن من تركت الباب مفتوحاً. سأل عن الفتى وعما يجئ به في مثل هذا الوقت، وقذفها بفستانها. أضاع النشيج ما قالت. ارتدى ثيابه وهو يأمر:

- إذا سألك أحد قولي: هذا القرد هجم عليّ. ما اسمه؟ أنا سأقول هذا للطويبي وهو يتكفل بالباقي. بكرة حتماً يكون هنا، وأنا أحضر معه.

ومرق من الباب، وراح يختفي من جذع إلى جذع حتى ابتعد القصر، فتباطأ، وكان صوتها يقترب وينجلي نادباً ومستجيراً، يسأل عما عليها أن تفعل الآن، وعما سيفعل الطويبي لو درى. وأقسم الصوت قبل أن يختفي على أن الفتى سوف يقتل غداً، وأماً وأباً ممن يخدمون في القصر سوف يُطردان إنْ لم يُقتلا.

وكان صادق يتلفت ويشتم النساء الخرعات و الخدم الذين يدورون حول القصر في هذا الوقت المبكر.

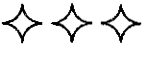

زأر الطويبي وكفاه تخبطان على جبينه:

- رحْ علّقْ رأسه ورأس العايبة على باب القصر.

قالت حورية التي ظلت صامتة منذ وصول صادق:

- أنا أذهب معك يا صادق.

سأل الطويبي وصادق معاً:

- ماذا تفعلين؟

التفتت إلى الطويبي بهدوء وقالت:

- واحد منا عليه أن يتأكد. هذه روح بشر لا دجاجة. وحتى لا تشعل النار بيننا وبين حمص والبادية معها، لا بيننا وبين رعد بك وحده.

وقف الطويبي قائلاً:

- نروح كلنا اذن.

وعلى الطريق سألت حورية:

- كم عمر هذا الولد يا صادق؟

قال صادق متوجساً:

- ستة عشر، سبعة عشر، لا أعلم.

- ولد هو أم شاب؟

- بعد قليل ترينه. لا أعرف.

- كيف مشيت بعد ما جرى دون أن يراك أحد؟

- هذا ما حصل.

قال صادق وهو يتضاءل ويرتعد. وصمتت حورية طويلاً قبل أن تخاطب الطويبي:

- إذا كان الولد هو المعتدي فما ذنب شهلا؟

صاح الطويبي بها:

- ما قصدك؟ افرضي أنها حبلت منه.
- وإذا كان المعتدي حاول وما قدر؟
- أتركها تعيش والناس يشيرون إليها وإليّ؟ ماذا يدور في رأسك؟
- لاشيء. أسأل حتى لا نتحمل ذنب بريء، ولا نظلم.

قالت، ثم صمتوا جميعاً إلى أنْ لاقاهم رعد بك في جنينة القصر.

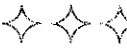

كان الفتى وأبوه وأمه متكئين على مقربة. أمعن الطويسي في وجوههم من بعيد وصاح يهيل عليهم شتائمه. أحسّ الطويسي أن الشتائم تنصب عليه هو أيضاً، وهاله صغر الفتى. التفت إلى جناحه من القصر حيث اختفت حورية وشهلا. نادى الفتى وأومأ إلى صادق. سأل رعد بك:

- ماذا تنوي أن تفعل به؟

ضيع عويل أبويّ الفتى السؤال. وانهض الطويسي ممن كرسيه، وجرّه إلى اليسار. لحق به رعد بك، وصادق يدفع الفتى أمامه ويشتمه. وفي الداخل كانت حورية قد استطاعت أن ترقف بكاء شهلا وشقيقتها، وعادت تكرر بحنان وحزم:

- صوتك يقول إنك كاذبة يا شهلا. نظراتك تقول. دموعك. اكشفي لي سرك وأنا أخلصك. أنا أختك الكبيرة. صارحيني وارحمي نفسك. ارحمي الولد وأهله. ارحمينا كلنا ولا تخافي. احكي.

قالت الشقيقة:

- صادق العروضي أساس البلاء.

سألت حورية مستنكرة:

- حرام عليك. ما علاقة صادق العروضي بما نحن فيه؟

ناحت شهلا:

- آخ من يقتلني ويريحني.

قالت حورية:

- لا تستعجلي الموت. إذا بقيت هكذا ما أمامك غيره. حياتك وموتك بيدك. حياة الولد وموته بيدك. احكي يا شهلا.

والتفتت إلى الشقيقة تسأل بحذر:

- تشكّين بصادق؟

علا نواح شهلا وخرست شقيقتها. وشق الفضاء صوت رصاصة، فأخرى، وفيما تتالت رصاصات أخريات شبت النسوة الثلاث، وقفزن إلى الخارج، وكان الطويبي ورعد بك الموسى ينظران بعيداً، وصوت أبويّ الفتى يشق الفضاء أيضاً.

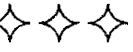

بعيداً عن القصر، وعلى المفرق الزاحط بحدّة إلى النهر، أمر صادق الفرسان الذين لم يستبق الطويبي أحد منهم برفقته، أن يسبقوا. ولما نأوا تقدم شهلا في الدرب النازل إلى النهر، يهدهد ويهوّن.

على الضفة الرطبة أوقف الحصانين الوحيدين في قصر رعد بك، ودعا إلى الراحة. وإذْ كانت شهلا تهدأ نسي أنّ عليه أنْ يتخلص

منها. مشى ريْثاً نحو الدغل، وتبعته تسأل لأول مرة عن وجهتها. عاد إلى الحصانين ودار حولهما، وفي ظلهما لحقت به وهو يرمقها. امتدت ذراعه إليها فتراجعت. تقدمت الذراع متشهية وحطت على كتف يرتجف. ارتجف الذراع أيضاً واضطربت أوصال صادق. تملصت شهلا بجفاء، فالتقطت أصابعه شعرها وشدت. أجفلت الآهات الحصانين وذراعاه تقبضان عليها ثم تنيخانها. انطرحت وهي تقاوم فوق الاوراق الطرية. تمزّقَ الفستان وأدمت أظافره نهداً بعدما أدمت أسنانه النهد الآخر.

تلاشت شهلا والأظافر تدمي فخذيها اللذين اصفرّا وتراخيا. خبط الحصانان بعنف فزجرهما صادق ونادى ملبياً الطوبي، وظل يزجر وينادي حتى انتعظ.

همد الحصانان مثله، وامتدت إلى عضوه مزقة من الفستان تمسح. سوّى ثيابه بأناة، وتناول مزقة أكبر، وتشممها قبل أن يوثق بها ساقي شهلا، ويحملها ذراعاه إلى النهر.

أما الطوبي الذي كان يقترب آنئذٍ من الطويبة، فقد ظل ينكر أن صادق سيتخلص من شهلا حتى أعلنت حوريةً التهمة، فصرّت أسنانه وامتلأت عيناه بالدمع. وعندما استطاع أن ينطق ناشد:

- ساعديني، أنا أموت.

احتضنت حورية رأسه وقد تيقنت من موت شهلا. أمرت السائق أن يطير، والطوبي أن يسكت، فانصاعا، حتى توقفت السيارة قرب السنديانة. أبعدت حورية رأس الطوبي وأسرعت إلى البيت. توقفت

في العتبة والتفتتْ وراءً. كان الطويبي يقترب متطوحاً. تربعت في العتبة وقالت:

- أم الولد وأبوه عوضهما عنه يوم القيامة. شهلا ذنبها على جنبها. انسها. رعد بك ترضيه بالزواج من بنته الكبيرة، وبالذهب. أما صادق العروضي فالقتل قليل عليه. إذا كنت غير موافق فابق معه واتركني أرحل إلى أهلي.

تربع الطويبي قبالتها، ولبثا صامتين يتحاشيان أن تلتقي نظراتهما. حتى ألقت أمامهما بصادق سيارة كبيرة، في المساء. نادى الطويبي فارساً وانتزع منه البندقية، فيما كانت حورية ترد تحية صادق وتأمر:

- قف عندك. والآن: قل الحق ولو..

وقطعت البندقية صوتها وخطوة صادق، ولما تقرت ما جرى أمرت الفرسان:

- ارموه في الوادي. إياكم أن يعرف الجن الأزرق قبره.

وكان الطويبي يعيد للفارس بندقيته، وبالكاد سُمِعَ صوته:

- لافي الطويبة ولا في غيرها يبقى له أثر. لا بيت ولا دابة ولا بشر.

ودخل إلى البيت يقاوم البكاء، وبدت حورية وهي تلحق به تقاوم مثله أيضاً.

طيف آخر لعرش آخر

1

حرّم الطوبي على نفسه الزواج من بعد. وسرعان ما أشغلته الانتخابات عن اضطرابه، وأنستْ حورية ما كان. أما معوض أفندي الذي برع في قيادة الحملة الانتخابية، وفي قيادة الفرسان، واحتفالات الفوز الباهر، فقد جاء يستأذن بالعودة إلى الحدود عشية سفر الطوبي إلى العاصمة لحضور جلسة البرلمان الأولى.

ترجّعت كلمات معوض أفندي في سمْع الطوبي مُحْيية صادق العروضي وشهلا وفتىً مجهولاً. وخلف أولاء تماثل الشيخ بركات مشنوقاً يتأرجح في عتبة البيت. ولما طال صمته قالت حورية:

- نحن بحاجة إليك هنا يا معوض أفندي. منطقة الحدود يمكن أن تستغني عنك وتستغني عنها. ابن نديم المكشوح صغير على حملنا، والحمل يكبر. ابق معنا.

هزّ الرجلان رأسيهما موافقين. وحين انصرف معوض أفندي أسرعت حورية إلى السرير تشكو السهر الذي تواصل منذ أسابيع. وخاف الطوبي من الوحدة فلحق بها. وهمست وهي تدير له ظهراً:

- إياك أن يصدق فيك المثل: من يجلس على الكرسي اغسلْ يدك منه.

تمتم وهو يدابرها:

- ليس هذا بالطوبي. أنت تعرفين.

واخترقت عيناه العتمة إلى كراسي البيت. تطامنت الكراسي مفسحة لكرسي جديدة يدور في مكتب عبد الحليم آغا أو مكتب الكابتن آلان. تطامنت الكرسي الجديدة مفسحةً لأخرى أكبر وأبهى في مكتب المحافظ أو مكتب المفوض السامي. ضغطت مؤخرة حورية وهي تتعاظم، فنادتْ كرسي مجهولة الطوبيي. طار الطوبيي إلى العاصمة ملبياً النداء. حط على الكرسي فهوت به على الأرض. زلزل الضحك المكان ورعد بك الموسى يتقدم. خيم الصمت فجأة وكاد الطوبيي أن يغفو لولا أن رعد بك الموسى أناخ عليه مصوّتاً.

- هذه الكرسي للنواب لا للمجرمين.

تقلّب الطوبيي وهو يزفر. لوّح رعد بك بورقة ونادى منادٍ إلى محكمة. انقاد الطوبيي إلى أيدٍ وقيد وحورية تصوّت: قلت لك تزوّج من شقيقة شهلا. ألهتك الانتخابات عن كل شيء كما ستلهيك الكرسي عن كل شيء. رفع رأسه عن الوسادة مستنجداً. صوّتت حورية: لا تخفْ. تنّهد والتجأ إلى ظهرها الدافئ. همس به أحدهم: حميت بها صدرك وكشفت ظهرك. دابرها من جديد فاقترب الهمس وخفت: والآن كشفت صدرك. ولو استلقيت أو انبطحت لما أفدت إلا أن تكون فراشك أو غطاءك. هي من جهة، والأرض - السرير - من جهة. من يحميك في يوم قريب؟ تلاحقت زفراته وتطايرت حوله الدعوات إلى المحاكم: واحدة أقامتها امرأة متهمةً بقتل فتاها. واحدة أقامها رعد بل الموسى متهماً بقتل ابنته. واحدة أقامها ذوو صادق العروضي متهمين بالقتل والتشريد. واحدة أقامها الشيخ ناظر ميمونة متهماً بالنهب والحرق والتهديد. اقتحمت البيت هبة باردة.

انتزع الكابتن آلان رجلاً مكبلاً من قفص الاتهام وخاطبه أمام الملأ: من يعلم كيف اختبأت مذكرات الجلب والتوقيف حتى مضت الانتخابات؟ ترك الكابتن الرجل الذي يشبه الطويبي مكبلاً، على الرغم من أن المحاكم أبطلت الدعاوى.

فكر الطويبي في أن كل دعوى تكفي لشنقه مرة، وها هو وقد تدرع بالحصانة البرلمانية ينجو من أربع مشانق دفعة واحدة، ولكن من يعلم ماذا يخبئ الصباح؟

وكان على وشك أن يلقي على حورية بالسؤال حين استدار إليها واستدارت إليه، وتشابكت أذرع وأنفاس، فتبدل السؤال بأمان تلونه الشهوة والنعاس المباغتين.

محمَّر العينين ومنتفخ الجفنين أفاق، ومثقلاً بكتمان الدعاوى عن حورية أسرع إلى مكتب الكابتن آلان الذي بادره:

- هاقد مرت الانتخابات بسلام كما كان الزعماء الوطنيون يرجون. لولا مساندتك لهم، من أين كان لهم هذا الفوز الكاسح في منطقتك وفي منطقة الحدود؟ الآن ماعادوا بحاجة إليك. لا عبد الحليم آغا ولا غيره. غداً يرفعون الحصانة عنك وينكشون الأدراج ويحيون الدعاوى الميتة. ما بعد ذلك تعرفه مثلي.

قال الطويبي منهاراً:

- خوفي من هذا جعلني أحضر إليك قبل أن أسافر إلى جلسة البرلمان. لم أنم البارحة.

قال الكابتن:

- الحذر واجب. هنا أقدر على أن أحميك. في الطويبة تحمي نفسك. أما في العاصمة فالمفوض السامي نفسه قد يصعب هذا عليه. نحن نتجنب الإحراج مع الحكومة. أنت تعرف مثلي. لا تسافر الآن. في الوقت المناسب تشبع من البرلمان ومن غيره.

- وحتى ذلك الوقت ماذا أفعل؟

- ليس الطويبي الذي أعرف من يسأل. أنتم ترددون: عدو جدك ما يودك، وعدوك سياجك. لو كنت ملهوفاً للبرلمان تكون مثل من يمشي إلى قبره. افرضْ أنهم هاجموك في بيتك. كل شيء جائز. ضاعف احتياطك. ضاعف الفرسان مثلاً.

- كم أستطيع أن أضاعفهم؟ مرة؟ مرتين؟ يصيرون ثلاثماية مثلاً؟ هؤلاء يواجهون حكومة لها مصفحاتها ومدافعها؟ ولو فعلت فمن أين لي المال؟ السلاح؟

- ماتجبيه الحكومة من منطقتك وجماعتك أنت أحق به. خذ منه قليلاً. خذ منه مؤقتاً. المال يؤمن السلام. وفي هذا أستطيع أن أساعدك. في التدريب أساعدك أيضاً كما ساعدتك أول مرة. المهم أن تبدأ. المهم أن تكون مستعداً. فكّرْ. تحركْ. حتى لو نجوت هذه المرة عليك أن تبقى مستعداً قوياً. هذا أفضل حتى لو نادوك بعد يومين إلى الوزارة. بل من دون هذا لن ينادوك إلى جلسة ثانية في البرلمان. لماذا؟ لأنهم من دون هذا لن يحسبوا لك أي حساب. بأقل

منه كانت لكل الزعامة والنيابة، ولكن هم اليوم غيرهم بالأمس. العالم كله اليوم غيره بالأمس، وبعدما تنتهي الحرب لن يكون مثله اليوم. أنت الآن نائب، صحيح، ومثلك منهم من يشكّل حكومة، صحيح، ولكن من منهم له جيشه وشعبه؟ من منهم قائد وحاكم؟ من منهم مثل الطويبي؟

كان الكابتن يتدفق، والطويبي يتلقف كل كلمة. وعندما صحا على أن أصابعه لا تقبض إلا على الفراغ، همس: لاتعدّ عجولك قبل ما يخلص القيقوب، وتساءل: أما حفظت هذا المثل أيضاً منا ياكابتن؟ ولذّ له أن يرى الكابتن فاغر العينين والفم، فنهض مصمماً على أن يدعه كذلك حتى يعود إليه ثانية ذات ضحى، أقلّ يأساً وحماسة.

قال معوض أفندي:

- هذا تمرد وعصيان ياسيدي. الحكومة لن تسكت.

قالت حورية:

- إذا كانت فرنسا معنا فماذا تستطيع الدنيا أن تفعل؟

قال معوض أفندي:

- فرنسا تقطع الطريق على الحكومة في كل مكان ياسيدي، على الرغم من الحكي عن الاستقلال القريب. نصائح الكابتن مفيدة. ولكن علينا أن نشك في كلامه كما نشك في كلام غيره. لو أرادت فرنسا أن تساعدنا بأقلّ من هذا فماذا تهمّ الدعاوى ومذكرات

الجلب والتوقيف؟ من يرفع الحصانة إذا قالت: لا؟ أنا ياسيدي خبرت الفرنسيين. بغمضة عين يبيعوننا ببسارة. يريدون اليوم أن يضعفوا الحكومة بنا، ولكن ما يخبؤون لنا أو للحكومة بعد سنة؟

قال الطوبجي:

- أنت هنا لتساعدني أم لتخطب عليّ هذه الخطبة؟

قال معوض أفندي:

- السياسة دروبها وعرة ياسيدي. ملغومة. خلنا في الدورب السهلة.

قال الطوبجي:

- لاأظن أننا كنا بعيدين يوماً عن السياسة. متى كانت دروبنا مفروشة بالحرير؟

قالت حورية:

- لاتجعلنا نترحم على صادق العروضي يا معوض أفندي.

ونهضت تتأهب للنوم. ولما انصرف معوض أفندي، تعمد الطوبجي أن يتأخر عن اللحاق بها، خوف ما لابد أنها تهيئ من عقابه على ما كتم عنها – لأول مرة – من أمر الدعاوى والمحاكم.

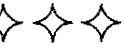

2

تطوع العشرات مما بين الطويبة والحدود في السرايا التي بدأ معوض أفندي يكوّن ويدرب مستعيناً بضابط فرنسي ورقيبين. وسرعان ما ازدهرت تجارة السلاح على جانبي الحدود، وفيما بين البادية والطويبة.

من أجل ذلك، وسواه، تسلل الطويبي إلى مكتب الكابتن آلان، ثم إلى بيروت. وبدلاً من المفوض السامي التقى برئيس مصلحة الاستخبارات. ووصلت إلى الطويبة شاحنة صغيرة محملة بالبنادق وبصناديق القنابل والرصاص، هدية من فرنسا.

بعيد الزيارتين اللتين ذاع سرهما سريعاً وعالياً، أرسلت الحكومة حملة صغيرة، انضم إليها مخفر الطويبة. وعلى المشارف الغربية أطلق كمين من الفرسان الرصاص، وصُرع دركي، وجُرح آخر، فتراجعت الحملة، وطار المخفر من الطويبة بلا سلاح. وتحدثت إحدى الجرائد التي كانت تصل إلى الطويبة بين حين وحين عن تهديد فرنسي للحكومة إن تعرض الطويبي لسوء. وفي العدد التالي نقلت الجريدة نبأ رفع الحصانة عن النائب الطويبي، تمهيداً لمحاكمته بتهمة العصيان المسلّح.

قالت حورية باعتداد:

– غداً ننظف الديرة كلها من أي أثر للحكومة ونرد الصاع صاعين.

لكن الطوبيي – شأنه منذ تراجع عن جلسة البرلمان الأولى– حاول أن يلجم حماستها، كما كان معوض أفندي يلجم حماسة ابن نديم المكشوح. ولئن كانت تستسلم على مضض، فقد اندفعت هذه المرة، يتبعها ابن نديم. ولبث الطوبيي ومعوض أفندي يتفرجان، حتى أنجزت السرايا تنظيف الديرة مما للحكومة، دون أن تراق نطفة دم. وعادت حورية تشكو السهر الطويل، ثم تغط في نوم عميق، مديرة للطوبيي ظهراً.

ماكاد الطوبيي يألف غياب الحكومة عن المنطقة، وقيادة حورية، حتى وصلت لجنة يرأسها وزير الداخلية، وفيها – سوى المحافظ – عبد الحليم آغا. ولأمر ما لاقى اللجنة بشوشاً. متجاهلاً حورية التي كظمت. وقد يكون ذلك ما جعل الوزير الذي وصل متجهماً يسترخي ويقول متوددا:

– نحن هنا لنطفئ الحريق الذي أوقدت فرنسا، كما أوقدت سابقاً في أنحاء عديدة من البلاد، وكما ستوقد مادامت هنا.

قال المحافظ:

– فرنسا الآن ضعيفة يا طوبيي. أظنك تعرف ما يجري في أوروبة. وكل ذنب يغتفر مهما عظم إلا ذنب واحد، ما يضرّ بوحدة البلاد

واستقلالها لا يغتفر. تذكّرْ ما انتهى إليه الآخرون حين كان لفرنسا قوتها، فكيف الآن وهي تشد الرحال؟

سأل الطوبجي لهفان:

- من قال إني ضد وحدة البلاد أو ضد استقلالها؟

قال عبد الحليم آغا:

- كفَّ اذن عن اللعب مع الفرنسيين. كفَّ عن التطاول على سلطة الحكومة من هنا إلى حدود تركيا.

قال الطوبجي مغالباً الغيظ:

- تقصد سلطتك.

قال الوزير:

- إذا كنت صادقاً عليك أن تنتهي من كل ما قمت به: تصرف المسلحين وتعيد للحكومة وغيرها ما استوليت عليه، وها أنا هنا بنفسي أضمن لك العفو.

قال عبد الحليم آغا مسترضياً:

- مكانك بيننا، وليس بين الفرنسيين. كرسيك في البرلمان ينتظرك. والحصانة كما رُفِعَتْ تعود.

قال الطوبجي:

- لوكت مطرح الحكومة لشكرت الطوبجي وتركته بحاله. ماذا فعلت من قبل أن تنفوني إلى الرقة حتى تشريفكم الآن؟ ما اعتديت على أحد إلا بعد ماطفح الكيل. نظمت شؤون الناس، وهذا ما أعرف أن الحكومة تريده. وفرت عليها التعب وهي لا ترتاح ولا تتركني أرتاح. أنساها فلا تنساني، مثل الخوري

امطانيوس. كيف تتصرف الحكومة مع فرنسا، كيف تتصرف في باقي البلاد، هي حرة. أنا لا أتدخل في شيء. لماذا تتدخلون في كل كبيرة وصغيرة مما يخصني؟ إذا كان عبد الحليم آغا أو عشرة غيره تضرروا فمن ينكر أن الآلاف استفادوا؟ وفوق هذا نحن مستعدون للتعويض عن كل ضرر.

قال المحافظ:

- كلام البهاليل هذا قلّه لغيرنا. حتى لو صحّ في البداية، الآن لا يصحّ.

قال عبد الحليم آغا:

- سبق أن أسمعتني مثل هذه الكلام. وكما صدّقتُ من قبل ونصحت، أصدقك الآن وأنصح. مما تقول بدأت، وها قد وصلت إلى ما وصلت. لماذا تحصر نفسك في هذه الدبرة؟ تعال معنا إلى ما هو أكبر. أنت نائب، والنائب مسؤول عن دبرته أولاً، وعن البلاد كلها أولاً وأخيراً. النائب أهم من الوزير، والبرلمان أهم من الحكومة. أمام وزير وأمام محافظ أقول لك هذا، افهمْ. من منا لا يريد أن يخدم الناس في دبرته؟ في البرلمان تخدمهم وتخدم غيرهم. تبقى لك دبرتك ويكون لك شأن في غيرها.

قال الوزير:

- دية الدركي القتيل وسائر الخسائر والحقوق تتحملها الحكومة مقابل أن تستجيب لما نطلب. حتى الدعاوى الشخصية ضدك تسقط. وإذا كان يرضيك أن أبقى هنا حتى ننفذ وتنفذ، فأنا باق.

قال الطوبجي:

- قدومكم خير وبركة. ما أحلى من الحلاوة إلا الصلح بعد عدوان. تفضلوا كلوا لقمة من زادنا.

ونهض يتقدمهم إلى الطاولة التي نُصبت تحت السنديانة. وكانت رائحة الشواء تعبق، وحورية ومعوض أفندي وابن نديم المكشوح يرقبون من بعيد، والبنادق مشرعة من كل صوب.

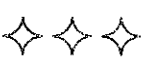

إلى المدينة شيّع اللجنة عصراً. ومن أمام مكتب عبد الحليم آغا هرع إلى مكتب الكابتن آلان. وعندما خرج تلمس معصميه، وأوشك أن ينحني ليلتمس كاحليه. كان كل معصم وكل كاحل ينشدّ إلى ناحية بين كلاّبات أو أسراس، والطويبي مشبوح بين عمودين من أعمدة الكهرباء، أو شجرتين من غابات الطويبة. كان قلبه يتفجر، وجلده يقشعر، وصوت الكابتن يطغى على أصوات اللجنة:

- لاشيء يخفى علينا. إياك والخديعة. نحن باقون هنا ولو قلنا العكس. أما الحرب وأوروبا والعالم أمس والعالم بكرة، فما شأنك بهذا؟ انسه. هذه فرصتك. وبدلاً من أن تكون متهماً اليوم، وتابعاً أو رهينة غداً لو صدقوا وعفواً، تستطيع أن تبني دولتك. كيف ستعيش تحت رحمتهم ومنّتهم؟ ضعْ يدك في يدي ولا تهتم. ولو أردت أن تعرف ما أريد لقاء أن أضمن لك كل شيء، فلن أقول إلا بعد أن أراك بدأت.

لم يطلب الطوبيي سوى مهلة قصيرة. لكن الكابتن يلح، واللجنة تلحّ. وعما قليل سوف تلحّ حورية. وقد تنصب بدورها عموداً أو شجرة، وتأتي بكلاّبة أو حبل، فمن أين للطوبيي بمعصم ثالث أو بكاحل؟

ظلت حورية صامتة حتى انقضت مهلة الأيام الثلاثة، وحضر الكابتن إلى الطوبية. وعلى الرغم من الوحشة التي لفّه بها صمت حورية، ومعوض أفندي أيضاً، إلا أنه أكبر منهما أن يدعا له القرار الخطير والأخير. ومثلما أصغى إلى الكابتن يكرر ما ظل يهدر به في مكتبه قبل ثلاثة أيام، من العصر إلى المغيب.

كان الطوبيي يسترق من حورية نظرة، فأطول، ينشد أن يقرأ في قسماتها ما يؤكد صواب ما سوف يختار. لذلك تعلق بصوتها عندما قاطعت الكابتن قائلة:

- قد يكون ما تريد فوق طاقتنا فنعلق بينك وبينهم. لماذا لا توضح منذ الآن كل شيء، ويكون اتفاقنا، لو اتفقنا على نور؟

قال الكابتن:

- هذا يتوقف على ما تريدون. العفو وحده، أم أن تستقلّوا بمنطقتكم، وربما توسعونها؟

قال الطوبيي:

- افرض العفو، وافرض غيره.

- العفو هيّن. من الألف ذهبية فما فوق، حسب طمع غيري وعناده. غير العفو قد يكون أسهل، مع أن المطلب أكبر بكثير. هذا ليس صفقة بعشر بواريد، ولا دعوى قتل ونهب. هي نسبة نتفق عليها. افرض أنها شركة. شركة كبيرة وأنا واحد منكم. لا

تنسَ: الشركة بدوني فارطة. لا تظن أن كل فرنسي هنا يعرض ما أعرض.

- أرجوك أن تفصّل. التلميح وحده في مثل هذا لا يكفي.

- بقدر ما في هذا من السياسة يكفي التلميح. وبقدر ما فيه من التجارة أيضاً، ولو أن هذه تتطلب التصريح. أظنك تدرك أنني أعني هذه وهذه.

قالت حورية بامتعاض:

- قل كلمة مفيدة واحدة.

قال الكابتن:

- أنتم تجمعون فوق النفقات قرشين. بعد قليل تصب في صندوق مدام حورية الضرائب التي كانت الحكومة تجمعها من الناس. احسبوا كم تستحق حصتي أن تكون. معوض أفندي يعرف أنني اقتربت من التقاعد. كلكم- أظن- تعرفون. وعندما أعود إلى بيتي في مرسيليا أريد أن يكون معي ما يدفئ شيخوختي. معوض أفندي يعرف أني ضيعت الكثير، ولكن ما عاد الزمن يسمح بتضييع القليل. ها أنا أحدثكم مثل صديق. ابني صار في الجامعة وبنتي مقبلة على الزواج. لا بد أن يزورني الطويبي يوماً، إلا إذا كان صار رئيس دولة حقاً، فيستقبله رئيسنا ويتكبر على الأصدقاء.

انفرجت أسارير حورية، ونهضت تتعجل الغداء، فيما ظل الطويبي ساهماً، ومعوض أفندي مقطباً. وما كاد الكابتن يختفي من الطويبة حتى اختلى بالطويبي وهمس:

- هذا المرتشي طوال عمره وجهه حوّار. سهّير قمار ياسيدي. والقمرجي راكبه النمس، يا بالخمّارة يابالحبس. أظن آخرته اقتربت. راح دور الخمّارة وجاء دور الحبس، وخوفي أن يجرّنا معه. كل رفاقه سبقوه برتبة أو برتبتين، لماذا؟

سأل الطوبجي مماحكاً:

- لماذا إذن هو أهم من كولونيل؟ بل من جنرال؟

قال معوض أفندي:

- هذا من أسرار الفرنسيين يا سيدي. لا أعرف. حتى لو عرفت فأنا خائف.

قال الطوبجي ممازحاً:

- إياك أن تسمك حورية. تعال.

ومشيا إلى حورية التي كان صوتها يُسمع من بعيد، ويُملي، وابن نديم المكشوح بين يديها يسجل، فهمس الطوبجي:

- أرأيت؟ كأنها أعدت لكل شيء عدته!

وخاطب ابن نديم:

- متى استقام خطّك؟ اقرأ لي ما كتبت.

قال ابن نديم:

- كل شخص يدفع ليرة ضريبة في السنة، والضريبة تكون أيضاً العشر من إيراد الأرض، ومن ثمن كل دابة تباع. كل مولود جديد يدفع أهله نصف ليرة. وعن كل ساموك في كل بيت يدفع صاحب البيت ليرة.

قال الطوبجي:

- اكتب: ربع المهر من كل زيجة للصندوق، وربع الإرث، وإذا لم يكن من وارث، فيصير الإرث كله للصندوق:

قالت حورية:

- إيراد الوقف كاملا للصندوق.

قال الطوبجي:

- وللصندوق عشرة قروش من كل شخص مرة في السنة مساهمة في نفقات الضيافة والهدايا وما شاكل.

قال معوض أفندي:

- أراك يا سيدي أنت من أعد لكل شيء عدته!

قال الطوبجي:

- أنا وحورية، ماالفرق؟

قال معوض أفندي:

- لم العجلة؟ بمثل هذا الكلام نحن أمام دولة حقا، فمن يقدر على أمور الدولة في يوم وليلة؟

قالت حورية ضاحكة:

- معوض أفندي على حق. رح ياابن نديم. هذا يكفي الآن.

ورامقت الطوبجي فأحس بالجلال، ونظر من عل إلى معوض أفندي الذي كان يحدق بابن نديم، ولاقى ضحكتها التي كانت تتعالى بذراعين مشوقتين.

3

أرسل الكابتن آلان قبل نهاية الأسبوع سكرتيره ليقيم في الطويبة ما يقتضي تدريب معوض أفندي وابن نديم وسواهما على الإدارة. وقبل أن يعود كان الطويبي قد أصدر قراراً يحدد راتبه وراتب زوجاته وبنيه وأنواره وقادة السرايا وعناصرها وسائر الذين هم بإمرته.

وفي نهاية الشهر نفسه أصدر قراراً بتشكيل محكمة الشعب وتعيين قضاتها ورواتبهم. وحدد قرار عاجل تال العقوبات: جزاء الاعتداء بآلة جارحة مائة ليرة، الاعتداء بالعصا نصف ذلك، الاعتداء بالكف ربعه، وجزاء مغادرة الديرة من دون إذن خمس ليرات.

وما إنْ غاب السكرتير حتى توالت القرارات: جباة لاستيفاء الرسوم والضرائب والديون، لكل جابٍ خمسة من الفرسان يعينونه في مهمته، البنات يتوزعن في فئتين: الخواص والعوام، ولكل فئة مهرها. وكانت الدفاتر السميكة والقلاطق والطاولات الصغيرة والكراسي الحديدية تتكاثر في غرف المخفر، من دون أن يسميه أحد مقراً للإدارة أو مركزاً. وربما كان ذلك لأن الطويبي وحورية لا يدخلانه إلّا نادراً، وعابرين دوماً.

كان كل شيء يمضي بيسر وانتظام. ومثلما كان الطويبي يستمرئ طوره الجديد ويتعلم، كانَ كل من حوله، وفي رأسهم حورية. كذلك بات له قبل أن يولي الصيف متسع ليستلقي تحت السنديانة، أو يستذكر ناهي وغزالة وولديه، ثم يجمع شمله بهم، من دون أن يستشير

حورية. وضاعف سروره أنها لم تأبه بذلك، سوى أنها أمرت أن يتعلم الولدان في مدارس الراهبات في بيروت، فنفذ من دون أن يستشير غزالة أو ناهي، وغير آبه ببكائهما. وكان البناؤون قد ضاعفوا البيت مرة، وشرعوا يضاعفونه أخرى. ولعله كان سيأمر بثالثة، لولا أن الحملة الحكومية الجديدة استدعت النفير.

كان وزير الداخلية يلح على المحافظ منذ مطلع الصيف بالقضاء على الطوبيي. وكان المحافظ يلحّ على قائد الدرك الذي ظل يتباطأ حتى أذن له الكابتن الآن.

هكذا اندفعت إلى الطويبة الشاحنات بالدرك والضباط، خلف المصفحة التي تقود الحملة، ويحتمي فيها قائد الدرك. لكن رسول الكابتن آلان كان قد سبق.

وعلى الرغم من أن الرسول شدد على مبادلة الحملة بالرصاص من بعيد، تجنباً لقتل أحد، إلا أن حورية أصرت على زرع الكمائن، تحرزاً لأي غدر أو خطأ، ومرددة: تغدَّ بالجدي قبل ما يتعشى فيك.

أخفقت الحملة في اقتحام الطويبة كما أبلغ قائد الدرك المحافظ، ولم تقع إصابات، وإن يكن الرصاص ثقب إطارات الشاحنات وعطّل تقدمها وانسحابها إياماً. وأسرع الكابتن إلى الطوبيي مهنئاً بالنصر، ومطالباً بحصته.

تذمرت حورية وقالت قبل أن تقلع سيارة الكابتن:

– خسيس لا يشبع. كان علينا ألا نوافق. على الأقل لو تظاهرنا بالرفض الآن، حتى لا يأتي بعد شهر ويحلف أنه دفع لفلان وأهدى لعلاّن، ويطلب زيادة جديدة. أملي أن لا نراه بعد اليوم. ماهكذا يكون الصديق.

قال الطويبي مهدئاً:

– لولاه لكان تعبنا أكبر. ولو راح من يضمن لنا خليفته؟

قالت حورية:

– تراه يحسب أن أرواحنا بإصبعه. من يأتي بعده نشتريه بأرخص. نحن أحق بما يبلع. حتى ما ينفق من حصته يجب أن يقلّ، لا أن يزيد، مادامت أمورنا تتحسّن. متى نستغني عنه وعن غيره؟

ردد الطويبي سؤالها ونظراته تلاحق السيارة التي ابتعدت. واحتار فجأة فيمن ترجو حورية أن تستغني عنه أيضاً سوى الكابتن، فالتفت ليسألها،لكنها كانت تسوق صوب السنديانة ضرّتيها، ومعوض أفندي يتبعها لسبب ما.

لم تطل الهدأة التي أعقبت الحملة، ولا الهناءة: الطويبة الشرقية طلبت إعفاءها من الضرائب متعللة بالصقيع الذي خرب الموسم الشتوي. معوض أفندي يلحّ منذ عيد البربارة على تسميته وكيلاً أو نائباً للطويبي. ما بين حورية ومعوض أفندي بدأ يذكّر بما كان بينها وبين صادق العروضي. المدرسة الوحيدة في مركز الناحية تشكو

انقطاع الكثير من التلاميذ والمعلمين. تسعة عناصر من السريتين الأولى والرابعة طالبوا بالعودة إلى بيوتهم. الشابان الوحيدان اللذان يحملان البروفيه في طويبة الشعرا لازالا يخلطان بعد ستة أشهر بين دفتر السلاح ودفتر الزيجات أو بين ريع الوقف وثمن بذلات الفرسان.

بيد أن ما أقلق الطويبي بخاصة كان ما راحت تنقل عيونه المبثوثة في كل مكان من تطاول الفرسان على الناس. لذلك خص السرايا بعقوبة الجلد أو التغريم بثمن البندقية أو الطرد من الخدمة ومن الديرة كلها، بحسب كل مخالفة. ولما نقلت العيون امتعاض السرايا، قرر معاقبة كل من يشتكي زورا ضد أحد منها بخمس وعشرين جلدة وخمس وعشرين ليرة.

عارضت حورية القرارات الأخيرة، فالسرايا- كما كررت - أهم من الناس. وكانت قد أخذت تعنى أكثر فأكثر بذراعي الطويبي، كما سمت السرايا والعيون. وقد يكون ذلك ما أخصب الخصام بينها وبين معوض أفندي. ولم يكن معوض أفندي، ولا الطويبي، يعلمان أنها بثت من العيون في المدينة نفسها، حتى جاءها من يردد وعيد المحافظ بحملة جديدة وشيكة وقاضية.

سخر معوض أفندي من معلومات حورية، ولم يخف الطويبي تشككه فيها، مادام الكابتن الآن لم يرسل إشارة أو نذيراً، فاضطرت حورية إلى أن تسمّي من زرعت في المدينة، وأحضرت عيناً لتشهد أمام الطويبي، ثم قالت:

- وجع ساعة ولاكل كل ساعة. علينا أن نخطف المحافظ من سريره لو لزم الأمر، ونجعل منه عبرة. إذا كان كل ابن حرام في الحكومة يخضّنا ساعة يعنّ على باله، فلن يلذّ لنا عيش.

هزّ الطويبي رأسه مؤمّناً، وفكر بعدما انصرف معوض أفندي وأدارت حورية ظهرها في أن العيش قد لا يلذ لأحد بعد اليوم، ولا فرق إذن بين أن يكون البادئ هو أو المحافظ، ولا بين أن ينتصر هو أو المحافظ. وظلّ يقلب ذلك في سريرته أياماً، ويزجر بسببه حماسة حورية واعتراض معوض أفندي، حتى قالت حورية:

– الكابتن في إجازة طويلة. مضى على سفره نصف شهر، وقد لا يعود. إلى متى ننتظر؟

فقال الطويبي:

– افعل يامعوض أفندي ما هو مناسب. لا أريد أكبر من قرصة إذن.

قالت حورية:

– طوقوا المدينة وهاتوا المحافظ إلى هنا.

سأل معوض أفندي هلعاً:

– وبعد؟

– ابقوا في المدينة لو لزم الأمر. بل ابقوا فيها. لماذا لا تكون لنا مثل الطويبة؟

– ماذا تريدين يا حورية؟

سأل الطويبي بهلع أكبر، والتفت إلى معوض أفندي آمراً بسخط:

– هات لها المحافظ لأرى إلى أن تقودنا. قلت لكَ: افعل ما هو مناسب. هيا.

وبرم وجهه حرداً، وحورية تنفتل إلى الخارج، ومعوض أفندي يلحق بها على مضض.

اختار معوض أفندي من كل سرية أفضل من قدّر. وبعدما رابط أولاء على مصب النهر، حمّل ابن نديم المكشوح رسالة للمحافظ تطلب المفاوضة.

كان قد رسم خطته بمعزل عما تريد حورية، وعما يريد الطوبجي نفسه. وحين تأخر ابن نديم المكشوح ضيّع معوض أفندي ما رسم، وبخاصة ما سوف يفاوض المحافظ عليه، لو استجاب للرسالة. وراح هياج المرابطين يضاعف توهانه، حتى رأى نفسه يندفع بهم إلى السراي، فإذا بشبان عزّل يحرسون، وابن نديم المكشوح يعدو نحوه صائحاً:

– المحافظ هرب بعدما رفض قائد الدرك حراسته أو ملاقاتنا.

أشار معوض أفندي إلى الشبّان الصاخبين، فقال ابن نديم:

– مالنا ولهم؟ أمس كما سمعت كانوا يتظاهرون ضد الحكومة وضد فرنسا. الآن جاءوا يدافعون عن المحافظ ضدنا أو ضد غيرنا، لا أعلم. ولكن لماذا جئتم؟ لماذا لا نرجع؟ ها قد نفذنا أوامر الطوبجي والست حورية بلا رصاصة.

قال معوض أفندي:

– لأول مرة أسمع منك كلمة تنفع.

وأردف في سرّه: لكننا لم ننفذ أمراً للست حورية ولا للطوبجي. وأمر الفرسان بالعودة فَرِحاً، كأنما عثر على الخطة النائمة.

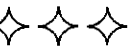

أمرت حورية بإطلاق الرصاص وزغردت وهتفت: هذا هو النصر. وكان معوض أفندي يستعيد شباباً ضيعه منذ عشرات السنين، وابن نديم المكشوح يرغط،والطويبي يراوغ حيدته، وحين أُوقِدَت النيران في العشية على القمم المروسة بالصنوبر، فكر في أنه آن للناس - مثله- أن يفرحوا، فتهادى إلى حلقة الدبكة الملتئمة تحت السنديانة، وإذا بحورية تندفع إلى رأس الحلقة مغنية:

آويها رجالْنا هوبرتْ ونسوانّا غنتْ
آويها ورايانتنا بكبد السما طلّتْ
آويها واللي مرّتْ ع جمعنا وما سمّتْ
أويها تقبرْ صباها قبل ما الشمسْ ولّتْ

وفيما راحت تتلوى بخصرها نقراتُ الطبل، علا صوت ابن نديم المكشوح:

ع الديّهْ الديّهْ الديّهْ العزّة للستْ حوريّه

وكما رددت الأكف والحناجر خلفه، رددت البنادق والمزمار والطبل، وخبطت قدم الطويبي خبطة أولى في وسط الحلقة، فلاقاه جذع حورية بميلة أقوى، وصدح ابن نديم المكشوح:

من سطوتها ترجْ الأرضْ غربْ وشرقْ وطولْ وعرضْ
قرْضوا روسْ الأعدا قرضْ الطويبي والستْ حوريّه

4

سكنت الطوبية إثر عرس الطويبي الأكبر، كما سُميت تلك الليلة. ومثل الطويبي بدت الطوبية تخلد منيعةً وقريرة، ترمق بطن حورية الذي بدأ يكبر على هون، يزيد جمالاً، ويؤكد الوعد بعشمان، كما اختارت أن يُسمّى ابنها القادم، كرمى لشقيقها الغريق.

ومن المدينة تواترت إشارات العيون تؤكد حلول محافظ جديد، لم يلبث رسول الكابتن آلان أن وصفه بالصديق، فتضاعفت فرحة معوض أفندي الذي كان ينفرد رويداً بكل أمر، كلما أقعد الحمل حورية، أو زاد ميل الطويبي إلى ملازمة السنديانة وعزوفه عن كل أمر. وفيما كان جفنا معوض أفندي لا يكادان يغمضان، كان جفنا الطويبي لا يكادان يفترقان، كما ردد ابن نديم المكشوح، ومن يحرس البيت من الفرسان، فرددت الطوبية خلفهم، وأضافت كما أضافوا أن معوض أفندي صار ينام وهو يقظان، والطويبي صار يستيقظ وهو نائم.

غير أن معوض أفندي أخذ بغتةً يرسل في الليل صوته مكتوماً، أشبه بالنواح. ولئن عدّ ذلك من سمعه تهجّداً، وأغبطه عليه أو لم يبال به، فقد أخذ ابن نديم المكشوح يتبيّن نتفاً من الكلام، ثم صار ينظمها كما يقدر، فإذا بمعوض أفندي ينذر للعذراء زنّاراً من حرير الشام، أو يوصي امرأة بتحريك المؤونة ليلة عيد الغطاس، أو يعد أسماء الأحياء والأموات من أولاده وإخوته، أو يرتّل: فلولا إذ بلغت

الحلقوم. كلا إذا بلغت التراقي، وقيل من راق، وظنّ أنه الفراق، والتفت الساق على الساق، إلى ربك يومئذٍ المساق، ثم يغرق في بكاء بلا صوت ولا دمع.

لم يستطع ابن نديم أن يصبر طويلاً، فقطع على الطويبي غفوته أو يقظته، وحشرج:

– معوض أفندي يا سيدي يودع. بل هو يخرف ويودع.

ضحك الطويبي وترحم على الشيخ بركات، وانسحب ابن نديم خائفاً، ولما واتته الجرأة ثانية، قطع على معوض أفندي نفسه يقظته أو غفوته، وهمس:

– مالك تخلط كلمة مسلمة بكلمة مسيحية ولا تذكر إلا الموت طوال الليل؟

نادى معوض أفندي أنبياء وملائكة ممن لم يسمع ابن نديم من يناديهم من قبل. ولم يلبث أن اختلط النداء بكلام لم يسمعه من قبل أيضاً. واشتبكت أذناه بعينيه، فصار الصوت خيالاً والخيال صوتاً، وامتدت في كل ناحية أظفار من حديد. التجأ ابن نديم إلى معوض أفندي الذي كان يلتفّ بالشجاع الأقرع. رمى الشجاع الأقرع ابن نديم في حفرة على قدّه. تشققت حناجر وهي تستجير من الثعبان وتنكر الموت. أشار معوض أفندي بلقمة من قش عش لتعود الأصوات المشروخة المبحوحة. صاح الثعبان فقصف المكان برعد لم تعرفه الطويبة، وخبط ابن نديم على رأسه. غاص القبر إلى أسفل سافلين وتشققت حنجرة ابن نديم:أريد أن أعيش. لا أريد أن أموت. أنشب الثعبان أظفاره في الأرض حتى بلغت سويداء ابن نديم،

وعادت به إلى مطرحه لصق معوض أفندي. قال معوض أفندي: ابـق هكذا حتى يوم القيامـة. انسـحب ابـن نديـم متعجبـاً ممـا طـرأ لـه ولمعوض أفندي، وباكر الطوبجي مستمينا:

– معوض أفندي يا سيدي يخرف ويودع. هو الآن يديـر كـل شـيء. ولو بقي كما هو لخرّب كل شيء.

أمر الطوبجي بحضور معوض أفندي، فإذا هو بشـبح يذكـر بطـاهر عوانة، وابن نديم المكشوح خلفه يذكّر بصـادق العروضـي. جاسـت عينا الطوبجي الوجوه التي تحوطه. تساءل عن الشيخ بركات، وفكـر في أن النهاية محتومة مهما نأت، كما هومحتوم أن تشبه البداية. وقال كأنما يخاطب نفسه:

– مابك؟ كأني لم أرك منذ سنين؟ ما الذي بدّلك؟

قال معوض أفندي مبتهلاً:

– دعني أمضي ياسيدي. اعتقني.

قال الطوبجي بصوت واجف:

– إذا كان الشوق إلى الأهل يحضرهم اليوم. كم قالت لك حوريـة: قلبك يبقى معلقاً بالحدود ما داموا هناك.

جاء صوت معوض أفندي من بعيد:

– ليس هذا ياسيدي؟

سأل الطوبجي بلهفة:

– ما الأمر؟ قل لي: أنا الطوبجي. من أجلك لا يصعب عليّ أمر.

تنّهد معوض أفندي، وبدا كأنه يصحو مـن غيبوبـة طويلـة وهـو يقول بأناة:

– منذ بدأت أنوب عنك وعن الست حورية رأيت نفسي بين عتبة أول منزل من منازل الآخرة، وعتبة آخر منزل من منازل الدنيا. أسكرتني نيابتي أربعين يوماً، وأنستني العتبتين. منذ اليوم الحادي والأربعين أنتظر وداعك ياسيدي.

– لاتطلْ غيبتك.

– ليس بيدي غير أن أزورك عند زوال كل شمس.

– أنت ميت إذن. مت مباركاً كما عشت.

قال الطويبي وتناول طاسة الماء. دوّم في الطاسة رنين يسألها: كم فيك من طرف كحيل وخد أسيل. ارتسمت الطاسة، ودوّم في صدره رنين ينكر على معوض أفندي أن يتعجل المنزل الأول أو المنزل الأخير. عادت الطاسة إليه محدقة. حدق هو في عيني معوض أفندي يسأل عن الأجيال التي تقلب فيها، والأجيال التي لا زال عليه أن يتقلب فيها، قبل أن يبلغ العتبتين. ضاقت نظراته بالرثاء، وخشيتْ أن يكون هذا الميت كافراً. كشفت الطاسة الغطاء عن طاهر عوانة والشيخ بركات وصادق العروضي. ارتسم الطويبي والهيئات تتمايز وتختلط: واحد في هيئة كابورال فرنسي، واحد في هيئة عبد الحليم أغا، واحد في هيئة عثمان الذي ستلد حورية، واحد في هيئة عصفور يزرق على رأس معوض أفندي، حمارة تنهق في أسفل الوادي، دوّامة ترميها السنديانة بلا قمع، قمع بلا دوامة، طاسة تنادي شفتين مشققتين، شربة ماء تبرد الروح وتدع الطويبي يخاطب معوض أفندي كما كان طاهر عوانة يخاطب سواه:

عند حضور أجلك تأتيك الريحانتان: المسخية تسخيك عن الدنيا، والمنسية تنسيك. ساعتها يمتلئ صدرك بأطيب ريح، تنعش وينقطع رهقك، يبيضّ وجهك ويرشح جبينك، ولحظة ينفرط من عينيك ما يشبه الدمع، وما هو دمع، تكون نفسك قد خرجت. أين أنت من هذا؟

قال معوض أفندي:

– إني فيه ياسيدي. إني فيه كل نهار وفي كل ليلة تلسعني الحيات والعقارب بأشد من النشر بالمناشر والقرض بالمقاريض والرضخ بالأحجار وتدوير الأرحية على الأحداق. آه ياسيدي! كأني جمل والزبد يسيل من هذا الشدق وهذا الشدق. آه ياسيدي! كأنّ قضيباً من النار يخترق أحشائي وينزع مني روحي.

صاح الطويبي وهو يرمي الطاسة ما وسعت ذراعه:

– ويلك حسبتك تموت موت المؤمن. هذا هو موت الكافر.

قال معوض أفندي مستسلماً:

– الآن أدركت ياسيدي. كنت أحسب أنه موت حاكم جائر أو شاهد زور أو من أكل مال يتيم. الآن أدركت ياسيدي أني بدأت بالأخيرة وثنيت بالثانية وختمت بالأولى.

نهض الطويبي يلحق بالطاسة وصوته يرجف:

– هل أدعو لك باللعنة أم بالرحمة؟ قمْ لاقِ مصيرك بعيداً عني.

اختفى معوض أفندي، وابن نديم المكشوح يتبع الطويبي حتى أبرقت الطاسة وسط الحاكورة الغربية، فهمس:

– سمعته مراراً ياسيدي يردد أنك ماريغ، والست حورية مارغة، وينادي أول من خلق الله من الجن. ويعدد: الطويبي الأول، حورية الأولى، حتى يشرق بالكلام.

– وأنت ما قولك؟

سأل الطويبي وهو يتحاشى وميض الطاسة، ويفكر في أن على ابن نديم أن يعوضه عن معوض أفندي، على الأقل ريثما تلد حورية، ثم أمره أن يحضر الطاسة، ولوى عائداً إلى السنديانة، كأنه يهرب من خطرٍ بات وشيكاً.

5

باشر الطويبي تصريف الأمور بنفسه. ولما وصل خبر موت معوض أفندي في طريقه إلى بيته، بدا الطويبي غاضباً على الجميع، وبخاصة على ابن نديم المكشوح. واكتشف فجأة أنه جاهل تماماً بما بين يديه، وأنه يتعثر في أي أمر.

ولعله لذلك – أو هرباً من ذلك – أسرع إلى الكابتن آلان ليطلب منه السكرتير أو غير السكرتير، ممن يدرب أو يعين.

غير أن الكابتن لاقاه بالتقريع على التأخير بزيارة المحافظ، وأنساه غرضه وهو يقول:

– اغتنمْ فرصة وجود صديق لنا. أسرع الآن قبل أن تكمل فنجان قهوتك.

ثم زاده المحافظ نسياناً وهو يقف إجلالاً للضيف الكبير، ويقدم فنجان القهوة المرة بيده، ويقول أمام من كان يغصّ المكتب بهم:

– مثل الطويبي يحق له أن يتدلل.

وحين أراد أن يخرج من صمته رأى نفسه يخرج من المكتب. لكن المحافظ تشبث به ريثما صارا وحيدين، وقال:

– شقّ للسيارات طريقها في الأحراج والجبال حتى تصل البحر بالبادية. لا أحد يقدر على هذا مثلك، وأقصد: الحكومة قبل غيرها.

سأل الطويبي مستخفاً عما يجديه ذلك، فهمس المحافظ:

– بعد فترة يبدأ الترخيص بالقطع من الأحراج. بلا طريق لا تستفيد منطقتك من هذا. كلما أسرعت كان ذلك أفضل. هذه فائدة كبيرة للجميع: الشعب، الدولة، أنت، أنا، والكابتن آلان أيضاً يسنّ أسنانه. كيف لم يحدثك عن هذا؟ أنتما صديقان حميمان.

قال الطويبي وقد بدا عليه الاهتمام:

– أظنه أجّل الحديث حتى أعود إليه من عندك.

قال المحافظ:

– لا أريد أن أؤخرك. وما كنت أريد أن أذكّرك أنه مهما كان قريباً إلى واحدنا، نظّل أقرب إلى بعضنا منه. هل ستنقل له هذا؟ لو فعلت فسيعدّها دسيسة منّي بينك وبينه. جرّبْ لنرى ما يكون منه.

وقف الطويبي وأذناه تتشكّكان في أن للمحافظ صوتين أو لسانين على الأقل، وقال:

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

– زيوان بلدك ولا قمح الصليبي.

سأل المحافظ ضاحكاً:

– من منا الزيوان؟

ضحك الطوبجي وهمّ بالاعتذار، إلا أن المحافظ نطق بصوت جديد:

– لاتنسَ أني من برّد موقف الحكومة منك، وليس المفوض نفسه. أو ليس هو أو الكابتن آلان وحده من فعل. نحن الآن دولة مستقلّة، ورحيل الفرنسيّين صار أقرب مما يظنون بعدما عمّ السلام في العالم. علينا أن نتعاون حتى نرتب كل شيء ونمحو الماضي. هذه فائدة كبيرة للجميع.

– من أين أرسلك القدر لي؟

لهج الطوبجي بالسؤال وعانق المحافظ بحرارة، ومضى يتعثر في مشيته مثل طفل دوّخته فرحة.

كذلك رجع إلى الطوبية يصرّف كل شيء بحذق وحزم لم يعهدهما بنفسه، كما لم يعهدهما به أحد، من قبل. وكان ابن نديم المكشوح يحلّ محل معوض أفندي بسرعة، ويبزّه. وما إن ابتدأ شق الطريق الحراجي شرقاً حتى توالت التفاصيل والمشاقّ: شراء المناشير الصغيرة والكبيرة، الفؤوس الجديدة، المجالخ، الديناميت، الأسافين، الهواديز، القفف، الرفوش، الأشجار الصريعة، ركوب السيارة إلى المدينة، ركوب الحصان إلى حيث ينبغي أن تصل الطريق في الغداة، توزيع

الأدوار في القرية الواحدة، الجقلان والضباع، هياج الشبان، الغناء، الأسواط، المتقاعسون المتكاثرون، الحاجة إلى العجائز والأطفال، وابن نديم المشكوح يتكشف عن بضعة من صادق العروضي، وبضعة من حورية نفسها، والطوبجي يخاطبه جذلان كل حين:

– ما من ماريغ غيرك، ابحث عن مارغة حتى أخطبها لك بنفسي.

ومثل أي من الشغيلة كان يؤوب كل مساء منهكاً، يرمق بطن حورية ويتعجل قدوم عثمان، يلوي عن ناهي وغزالة، يتذكر بنت رملة، ينسى رملة، يلتهم عشاءه ويشخر، يسابق الطريق التي أخذت تطلّ في منتهاها البعيد على المستنقعات الشرقية، يلكز المدحلة التي لاتزال في بداية الطريق، يعنّف السائق الذي يؤكد أن المدحلة لن تلحق بالشغّيلة قبل حلول الشتاء، وعندما قال السائق:

– في مستودع النافعة مدحلة واحدة على الأقل بلا شغل، هاتوها.

ساطه الطوبجي سوطةً واحدةً، ثم نسيه حتى صاح:

– ما بقي من الفحم ما يكفي ثلاثة أيام.

فلوح الطوبجي بالسوط فوق رأسه، ثم ساط الحصان، ونادى خمسة من الفرسان وابن نديم المكشوح، ونهر سائق السيارة:

– طرْ بنا إلى مستودع النافعة.

في منتصف الطريق ضرب كفاً بكف عجباً من حضوره بنفسه من أجل مدحلة أو رطل فحم. وصبت عيناه وزفرتُه السخط على ابن نديم المكشوح وعلى السائق الذي يدبّ بالسيارة دبيب النملة. وعندما وصلت أخيراً انصب السخط واللهاث على مدير المستودع الذي لا يستطيع أن يحرك ساكناً إلا بأمر المحافظ.

أمر الطويبي اثنين من الفرسان باقتياد المدحلتين وسائقيهما، وأمر ابن نديم أن يؤجر ثلاث شاحنات لنقل الفحم، ويرفق بكل واحدة فارساً، وزلزت صيحته:

– كل من يقول لكم: لا، أسكتوه برصاصة.

وانطلق إلى السراي.

قال المحافظ مكشراً:

– أنت هكذا تحرجني. مهما تكن فأنت في دولة، ماذا تفعل لو كنت مكاني ورأيت الرائح والغادي يدخل إلى مستودعات الدولة، ويأخذ ما يشاء؟

قال الطويبي بجفاء:

– لستُ الرائح ولا الغادي، أنا الطويبي، وما أخذت مدحلة لأتبتخر عليها، ولا حفنة من الفحم لتدفئني.

قال المحافظ بَرِماً:

– لن تكفي مدير المستودع أقسى العقوبات.

قال الطويبي متحدياً:

– عاقبني بدلاً منه، لا ذنب للمسكين، أنا سوف أكافؤه.

– كلما قلنا صرت الطويبي رجعت طاهر عوانة، هذا لا يليق بك ولا بنا.

قال المحافظ، فصوّتتْ أذنٌ للطويبي مذكرةً بأصوات المحافظ. ولما صفت حكّها وهو يمدّ أصابعه منغماً صوته:

– ناولني الرخصة الأولى، والشجر المكوم الآن على جانبي الطريق يملأ بالفحم مستودعات فرنسا نفسها.

وراحت الأصابع تتلمظ في الفراغ، والمحافظ يتأملها معجباً.

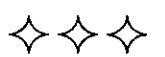

في سحابة ذلك النهار كانت حورية قد وضعت عثمان، وبدا الطوبي هو الذي ينجب أول مرة، لا حورية.

كان أول ما فكر فيه حين تلقّى البشرى أن أي أمر يمكن أن يقع في أية غيبة له: قيامة الطوبي الثاني سواء تسمّى بخضر أم بعثمان أم يابن غزالة، هذا العرش الذي اقتضى دهراً حتى استوى، الموت نفسه، فأي أمر مهما عظم تكفيه أية غيبة مهما قصرت، وقد يكون ذلك ما جعله يبدو ملتاثاً منذ دخل البيت: يتلصص على حورية والداية وزوجتيه الأخريين، تطمر نظراته دم النفاس في الحفرة التي لا ينبغي لأحد أن يدركها، يحرس المزبلة التي طمرتْ فيها المشيمة، يهشّ عنها القطط والكلاب، ينتفض خشية أن يكون أحد غافله فيموت الوليد أو يجنّ، يحرم على أحد أن يقصّ أظافر الوليد حتى تحكّه لثته، وإذْ تسأل حورية مغالبة رهقها، يهامسها: ما لم تُقصّ أظافر عثمان ياحبيبتي يا أم عثمان، يبقى في سرير الزهراء، فتهمس حورية عاجزة عن الضحك: أذكرتني بجدتي يا حبيبي.

كان يتعجّل عافيتها، يأمر عينيه أن تغافلاها وتكشفا الغطاء عن ساقيها، يطير بها من الطوبية إلى نبع يسكنه عبدٌ وحرّ، يعود طاهر عوانة الضارب في براري فلسطين، تعشى نظراته بساق تنسحب من مجرى النبع، يتدفأ بالماء الحارّ، يطرد الجنّ التي تنقل الحطب والفحم

من الطويبة إلى باطن الأرض، يوقد النار حتى تغلي الماء، ينادي ملء الفضاء: يا حورية يا حورية، أنت وحدك بلقيس ولا بلقيس سواك. اغسلي ساقيك بهذا الماء الطهور، فيترجع ملء الفضاء نداء حورية: ياحبيبي ياحبيبي: ها ساقي تسطع بلمسة من أناملك، لا حاجة بي مثل بلقيس إلى نبع، لا شعر على ساقيّ يزيله هذا الماء، لا تحت إبطيّ ولا بين فخذيّ، أنا مرآة الطويبي، تبصّرْ فيّ يا حبيبي. وكان يتبصّرْ ويتلذذ وصوته يرتد إليه، ويتوجّع وصورته تغترب عنه أو تتكسر فيه، ولم يكد يغادره ذلك حتى بلغ عثمان يومه الأربعين.

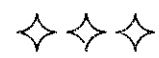

بعد ذلك اليوم أخذت حورية تفتقد من كانت قبل الحمل. ولئن أبهجها أن تُنادَى بأم عثمان – وودّتْ أن يُنادى ابنها كما كان شقيقها يُنادى: عثمان المرهج– فقد أسأمها أن تكون مرضعةً وحسب، واندفعت تسابق ما فاتها، وتتقرى ما تاه منها. وكانت تزداد ربكةً كلما رأتْ الطويبي يشد إليه أي خيط، مهما دقّ، ولم تجد أمامها أخيراً إلا أن تقول مداورة:

– الانشغال بالطريق في عز الشتاء مضيعة للوقت وتعذيب للناس، لماذا لا نبدأ بهذه الرخصة التي تكاد تهترئ في جيبك؟ خلّنا نورّد الأكوام الهائلة، ونبدأ القطع في السفوح الغربية، هذا أوفر للوقت وأهون على الناس.

قال الطويبي غير آبه:

– إذا اهترأت الرخصة نأتي بغيرها. الطريق يجب أن تصل إلى البادية اليوم قبل تاليه.

تراقصت لحورية أطلال رعد بك الموسى على تخوم البادية، فصمتت خوفاً من أن يكون الطويبي يسعى إلى أن يبرّد ثأراً، أو يروّي شوقاً إلى شهلا. وفكرت لأول مرة في أن الطويبي قد يفلت منها، وأحست أن جسدها ينتفض، فتركت له أن يتزين ويتطيب ويُدلّ على الناس قبل الطويبي، ويرتعش لنظراته، ويجنّ كي يستعيده مثلما كان أول العهد بالطويبة.

لم يطل الوقت بها حتى أضاءت بالظفر، ولكن في عتمة الليل وحسب، ثم يفقد ضوءُ النهار اللذاذة لذعها الأول، يدفع بها إلى ما تطبق يدا الطويبي عليه، يشلَحها إلى جانبه في السيارة، يبهرها بالطريق التي يتفقدان، فتحنق على الوديان والقمم التي تتقاذف الطريق، وتمتطي جواده، تبدّ قسوتها قسوة الطويبي، تزورّ عن أية شكاية حتى لو التفت هو إليها، تضاعف أيّ عقاب ينزله بأحد هو أو ابن نديم المكشوح. وحين عاينتْ القرية الأخيرة التي تجري إثرها الطريق إلى البادية، عادت أطلال رعد بك الموسى تتراقص لها، وبخاصة بعد أن رفض سكان القرية أن ينضموا إلى الشغيلة، وأن تقطع الطريق توتة أو تينة.

هي من صاحت بالسرية الأولى والأقوى، لا الطويبي ولا ابن نديم، فأحرقت السرية البيوت. ولما أضاءت النيران وجه الطويبي اختلط عليه فيها الحزن بالتشفي والغيظ، وظل وجهه ينضح بذلك إلى أن نقلت العيون ادعاء رعد بك الموسى بالاعتداء على أملاكه،

ونقل رسول المحافظ دعوة عاجلة. حينئذٍ أسفر الطوبجي عن وجه آخر لا عهد لحوريه به، ولعل أحداً سواها لم يلحظ ذلك.

أسفر المحافظ أيضاً عن وجه جديد لا يعرفه الطوبجي. وأصغى إلى التقريع، وشكوكه ترجح كفّة رعد بك الموسى عليه لدى المحافظ الذي ضاق بصمت الطوبجي فقال:

– أنت هكذا تحرجني.

ضحك الطوبجي وقال مقلداً:

– مهما تكن فأنت في دولة. ليس على لسانك إلا هذه العبارة يا صاحب العطوفة؟!

سأل المحافظ بحماسة:

– من يتحرش بخصومه؟ من يذكّرهم به وهم ينسونه؟ امنع زوجتك عن التدخل في كل شيء. يوم تقع لن تنفعك لا هي ولا غيرها.

تدلّت شفة الطوبجي السفلى هنيهة، وحين فطن إلى ما اعتراه عضّها وقال:

– لو كنت أعرف أن رعد بك يهمّك إلى هذا الحد لرحت إليه وقبّلت جبينه.

تبدلت ملامح المحافظ كأنما وصل إلى بغيته، وقال:

– حيّرتني. هذا كلام العاقلين، لا تذهب إلى رعد بك. أنا أجمعك به، والصلح يكون على يدي وفي بيتي.

تراخى جبين الطوبجي وتساءل ببراءة:

– لماذا تأخرت الرخصة الجديدة؟ أيكون رعد بك أولى؟

- هل تتجسّس عليّ وعلى المحافظ حمص معي؟ اسمحْ لي أن أصارحك:

- رعد بك أكرم منك وأشجع، ناصفني كما يناصفني ويناصف غيري، وسترى.

- والكابتن آلان من يحمل حصته؟

- رعد بك يحمل حصة الكابتن هنا والكولونيل في حمص.

ما على لسانك إلا اسم رعد بك؟ انتظرني قليلاً، سترى إنْ كنت لا أجعلك تنساه.

- اتفقنا إذن. توكلْ الآن، وفي الوقت المناسب تلحق بك الرخصة بالجملة والمفرق. مدير الاقتصاد الآن في بيته. حرد. اعترض على الترخيص واحتج بتدمير الغابات. علينا أن نهدأ حتى أبدله، القضية وصلت إلى وزير الاقتصاد، وهو صديقي.

قال المحافظ وهو يطوق كتف الطويبي برفق يقوده نحو الباب. وعندما تحررت الكتف تهادى الطويبي إلى السيارة، كما تهادت إلى الطويبة، ووجه شهلا يندغم بوجه شقيقتيها، وصوت حورية يدغُم وجه رعد بك بوجه المحافظ، ويسأل عمن ينفع سواها لو وقع الطويبي، ثم يسأل: كيف يقع الطويبي؟ لِمَ ومتى؟ ويغيب.

المشنقة

1

أعلنتْ حورية وقف الحرب الكونية كأنها من يقرأ الجرائد، وليس الطوبجي. وبعد قليل أعلنتْ وقفَ حصة الكابتن آلان من رخص قطع الأحراج ومن سواها، مادام الفرنسيّون راحلين، والانكليز يضربونهم على أقفيتهم، وتساءلت:

– لماذا لا نبحث عن سند بين هؤلاء شرط أن يكون أقلّ خسة من الكابتن؟

تابع الطوبجي لهوه مع عثمان، كأن السؤال لا يعنيه، فأردفت حورية بحنق:

– ابن نديم المكشوح لا يعرف كيف يبيع الرخص. التجار يخدعونه. هل تظن أنه بدأ يخدعنا؟ سبق أن حذرتك. كان عليك أن تتفق معهم بنفسك. رعد بك الموسى يبيع الرخصة بضعف ما نبيع الاثنتين، بل الثلاثة.

ودّ أن يقول: رعد بك الموسى أكرم وأشجع، وأن يقلّد المحافظ بعبارة أخرى ويضحك، لكنه خاف من أن ترميه بواحدة من نظراتها الثاقبة، كلما ذكر رعد بك، منذ بشرها بالصلح. وحبا عثمان نحوها فتناولته، وخرج الطوبجي يستعيد ساخراً صياحه ذات يوم: بشرى يا حورية: رعد بك أسقط الدعوة القديمة والدعوة الجديدة. بشرى يا حبيبتي: المستنقعات طافحة بالسلور والصيادين والجواميس والذهب.

رعد بك سبقنا إليها بسنين. وها هي الطريق تهوّن علينا أن نلحق به ونسبقه. بشرى ياحورية. رعد بك يعرض علينا أن نشاركه في المستنقعات. لكن حورية سألت وهي تحدق فيه:

– لماذا؟ لنغرق معه أم لنغرق وحدنا؟

تبخترت فرحة الطوبجي، وفطن إلى أنها سبق أنْ رمقته بمثل تلك النظرة فيما كان يتلذذ بحلاوة الصلح ويقلد المحافظ. ولبد يجترّ الندم على ما فرط بشهلا وبرعد بك، يردع نفسه عن أن تفكر بواحدة من الشقيقتين اللتين لم تتزوجا بعد، يكذب ظنه بأن واحدة منهما لازالت تنتظره، يزين لحورية زيارة القصر في الميماس، يحلم أن تسوق أمامها ابن نديم المكشوح كما ساقت صادق العروضي، يتطامن خوفاً واستحياءً كما يفعل الآن، فلماذا؟

دار السؤال بنظراته من أقصى الطوبية إلى أقصاها. تشهد وطأطأ مقراً أنه لسولا الفرار من حورية لما أطال يديه إلى المستنقعات. وقصرهما عن كل شيء هنا، لا عن رخص الأحراج وحدها. تأرجحت يداه راجيتين أن يوقع بيع الرخص بالخسارة، بل بورطة جديدة. نفض اليدين المتراخيتين زاهداً فيما يعنيه ذلك، فحورية هي التي ترسل منذ حين ابن نديم إلى المحافظ، والمحافظ يقبض باليمين ويسلم الرخص الجديدة باليسار. وحورية هي التي قررت السباق، فضاعفت الشغيلة والأجور والمكافآت والعقوبات. حورية هي التي خافت من تراكم الرخص ومن الزمن، فقررت أن تسابق رعد بك والمحافظ والتجار والحكومة السائبة والحرب الكونية والاستقلال. وها هي منذ أيام تلغو بتطويب الأرض التي تغطيها شملة الطوبجي. أياً كان

صاحب الأرض. هاهي تعلن: الطابو الرسمي في المدينة وليس هنا. أوراقنا لها قيمة اليوم، وبعده ننقعها ونشرب نقيعها. الطابو الرسمي هو الخطوة القادمة مهما كانت الطريقة ومهما كان الثمن، فلماذا؟

دار السؤال بنظراته ثانيةً، من أقصى الطويبة إلى أقصاها وراح يتفتق: هل تراجعت حورية عما كانت منذ سنة.؟هل يعني أن كل ما صنع لا يساوي ورقة بالية؟ هل كان إذن يكذب على نفسه طوال الوقت؟ حورية نفسها، المفوض السامي نفسه، المحافظ، الكابتن آلان، الوزير، رعد بك، عبد الحليم آغا، السرايا، السيارة، الفرسان، الأنوار، ابن نديم، هذه السنديانة. الناس جميعاً. هل كان كلٌّ يكذب على نفسه وعلى سواه؟ هل الحقيقة الوحيدة إذن هناك، في المدينة، في أوراقها وبشرها وأشيائها؟ وهل كان سيفكر يوماً بهذا كله لولا حورية؟

تهدلت رأسه فخطواته التي رددت: يكفي يكفي. وفكر وهو يعود إلى البيت في أنه قد يكون كذبةً كبرى، لا أكثر ولا أقل، وليس له إلا أن يصادقها. ومن أجل ذلك قصّرت خطواته معلنة العزم على أن تمضي إلى المستنقعات. فارتفعت رأسه تسأل عن غير المستنقعات أيضاً. وكادت نظراته تشرق لولا أنها وقعت على ناهي وغزالة وسط المصطبة، تتكوكآن مثل عجوزين. فانعطفت خطواته نحو السنديانة، إلى اليمين.

بينما كانت السيارة تنهب الطريق شرقاً إلى المستنقعات، قرر أن يعرج على المدينة: لا بد من وداع الكابتن آلان. ومن يدري، فقد يزور هو فرنسا ذات يوم، ويهبط على الصديق ليرى إن كان خسيساً حقاً كما تنعته حورية، أم لا. لكن الكابتن كان قد سافر إلى بيروت. وقد تكون الباخرة الآن غرقت به في عرض البحر، كما قال المحافظ، فعقب الطوبجي متأثراً:

- تتمنى له الغرق بدلاً من أن تدعو بالسلامة؟

- ادع له وحدك وخلّنا في الأهم: لماذا صارت غيباتك تطول؟ والله العظيم: الست حورية أعقل مني ومنك.

قال المحافظ وهو يقطع ضحكته، فرد الطوبجي بأسى:

- ماكان رأيك فيها هكذا، بظني.

- ولا رأيك. الاعتراف بالخطأ فضيلة. كأنها كانت تعرف أن الرخص ستنقطع.

انتفضت رأس الطوبجي وهو يسأل:

- ماذا تعني؟ لعبة جديدة؟

- أظنك سمعت. ما من أحد لم يسمع بالفضيحة. الدكتور كولن سامحه الله ودعني بها.

قال المحافظ متلجلجاً، فسأل الطوبجي مستبشراً:

- ومن يكون هذا؟

- الكولونيل الانكليزي، صديقي الذي كنت أدخره لوقت الشدة. فضح الرخص المزورة وهو يسكر في بيروت. لماذا فعل؟ بودي لو أعرف لقاء نصف ما أملك.

قهقه الطويبي، وصوت المحافظ ينوس:

- شامت بي مثل غيرك، أعرف. من أين لي أن أميز بين رخصة مطبوعة في المطبعة الرسمية، ورخصة مطبوعة في مطبعة خاصة في بيروت أو في أي مكان؟ مهمتي أن أفحص الورق والحروف أم أن أوقع؟

وعلا صوته وقد رأى الطويبي يتابعه باهتمام:

- على كل حال أنا من يحق لي أن أشمت بكم جميعاً، بالدكتور كولن نفسه. ضَرْبَتُهُ طاشتْ وأنتم غار نبعكم. لجنة التفتيش من شكّلها؟ أنا. وتقريرها أين.؟هنا، في جيبي. أما حضرتك.

وصمت حتى سأل الطويبي متعالياً:

- مابي؟

- مصيبتك أكبر. الدكتور كولن أعجبته لعبتك. أظنه يضع لك القرين في عبّك. قلت لك هو صديقي، وهذا من أسرارنا. كان من أسرارنا قبل أن يغدر بي. أين جواسيسك؟ أظنه يقدّر أن دورك انتهى، والدور الآن للطويبي الانكليزي. لوكنت مطرحك لرحت إليه وغزلت معه. أنا نفسي سأنسى ضربته وأغزل معه. بريطانيا الآن كلمتها تنفع بعد رحيل فرنسا. ومن يدري، فقد نبحث بعد سنة عن كلمة للأميركان أو للقرود. خلّنا في الاهم.

- وما الأهم بعد هذا؟

- الطابو. الطابو يعوض عليك رخص الأحراج. لا تسجّل كل شيء باسمك. لا تعوزك النصيحة. وزّع على نسائك وأولادك. وكما ترى الست حورية: ادفع بسخاء لكل من يتنازل عن شبر. أما عبد الحليم آغا أو الخوري امطانيوس ومن شاكل، فالأفضل أن تفاوضهم بنفسك. هؤلاء لا يهمهم المال. إذا عاندوا لا يستطيع أحد أن يجبرهم على التنازل. ومن دون الطابو لابد أن تعود الأرض لأصحابها. عجّلْ قبل أن يبدلوني، وما أظنهم يتأخرون. يمكن أن أرسل دائرة الطابو بكاملها إلى الطويبة حتى تنتهي بسرعة وأمان. لا تزعل: الست حورية أكرم منك وأشجع.

- ورعد بك نسيته؟ حتى النساء صارت عندك أكرم من الطويبي وأشجع؟ طوّبْ اذن أنت وحورية، وانسوني.

قال وهو يجمع شتاته، وفي رنة صوته يضيع التحدي بالحرد والرضى. وعندما عادت السيارة تنهب الطريق إلى المستنقعات، ضحك، وهو لا يتقرى في رنّة صوته غير وقع الفرار.

إلى ظلٍّ أرقّ وأقصر من ظل السنديانة لجأ حتى قدّر أن التطويب انتهى. كانت الصفصافة الخجلى رغم هرمها أمام الخيمة ملاذه من الحرّ والرهق في النهار، وملجأ الآخرين إليه، وفي رأسهم غالباً رعد بك الموسى، في الليل. وكان طيف حورية يداهمه في أي وقت، يضحك مع رعد بك من جهل الطويبي بالمستر كولن، يتوه مثله بين

الكولونيل والدكتور في التاريخ والاستاذ في اكسفورد، يدفعه كي يلحق بمن سبق إلى السفارة الانكليزية أينما كانت، يطير به إلى البحيرات الصافية والعكرة، يتفحص القوارب والشباك، يرمي عن رؤوس الصيادين قبعاتهم النتنة، يجلد المتعهدين، يأمر ابن نديم المكشوح أن يحضر شيوخ الصيادين. ورويداً بات الطيف يملأ الجبل الذي يهجم ها هنا – خلف الخيمة– على حافة المستنقعات، يرسل صوتاً أنثوياً كل هزيع: هذه الديرة أيضاً للطويبي. اسألوا قبر شهلا الشريد. اسألوا النهر الذي يتوه في هذه المستنقعات. اسألوا هذه المستنقعات التي تفغر على البادية كما يفغر جرح شهلا في صدر الطويبي، والطويبي يتضرع للطيف أن يلين ريثما تبترد النسائم.

لكن حورية لم تلنْ حتى استدعى من الطويبة عشرين فارساً. كان يومه السادس يوشك أن ينقضي: اللوكس والندى يلونان وجهه، رائحة الشواء تعبق، الفرسان يحملون سلام حورية، الجفنان الكليلان يرفان، الطيف يكنس المتعهدين وشيوخ الصيادين، الفرسان – كما يأمر– يقومون بالدورية ليل نهار، وهو بنفسه يحوم حول البحيرة فالبحيرة، يحصي القوارب والسيارات، يسجل الأوزان، يقبض على متعهد يتباكى وآخر يبخل وثالث يتأخر بتسديد ما فات موعده، يرمي بالمذنبين أمام الصفصافة الهرمة الخجلى، يمتلئ برائحة الشواء: ليس السمك وحده، ولا الجاموس، بل الغزلان أيضاً. وفي لحة ينطوي موسم الصيد، ويمضّه الحزن على فراق رعد بك الذي حرم من الذكور، لا أبناء ولا أصهاراً. ويحمل الطيف الطويبي وهو يعد رعد بك أن يلعبا في الموسم القادم بالمنقلة والضامة، ويجازيه بضحكة مدوية حين يشبه

صراع الملوك والرؤوساء والدول – ومواداتهم أيضا- بمودتهما التي سبقت صراعهما، وأعقبته.

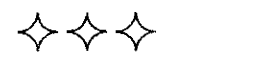

كان ذلك حين أتم يومه الثالث عشر. وفي اليوم الرابع عشر أعجزه والسيارة اللحاق بالطيف الفاتن حتى أطلت الطويبة، ورأى القوم يلاقونه كأنه وصل لتوه من الرقة، وسطعت حورية.

كان قائد السرية إلى يمينها يشهر ساطورا، وكانت يد تتحدى فوق الطاولة التي شطرتها تلة من الدفاتر. وسجح صاحب اليد:

- لو قطعتم رقبتي لن أتنازل لكم عن شبر.

أمرت حورية قائد السرية:

- اقطع

هوى الساطور، وقلبت نافورة من الدم رجلا كان يحتمي بتلة الدفاتر، وطارت قطعة من اليد. تمايل صاحب اليد وهو يدفن ما تبقى منها بشملته، ثم سقط، وأمرت حورية:

- تابعوا.

خبطت خطى الطويبي نحو البيت، وكانت ناهي وغزالة تزحفان ملاقيتين. حيت رجفة من أصابع ونظرات الطويبي المرأتين، وظل يخبط حتى غيبته العتبة. غرغر عثمان فتسمرت قدم. لوحت كف عثمان فشهق الطويبي جزعا من قطعة يد تطير نحو الصبي. شهق الصبي فزحف الطويبي إلى السرير، وأكب على الكف يلثم. غرغر

عثمان واهتز السرير. انتفض الطوبي وشدَّ على رسغي الصبي. بكى متوجعاً والطوبي يقبض على الرسغين. سقطت قطعة من اليد الطائرة على رأس الطوبي. تحرر رسغا الصبي وانقلب الطوبي. ضحك الصبي وصاح الطوبي. هجمت ناهي وغزالة. صاح الطوبي فتنازعت المرأتان الصبي وفرّتا. غاب الطوبي في إغماءة أو نوم حتى انفضّ مجلس الطابو، وجاءت إليه حورية مدندنة. تململ وهو يتلمس رسغيه ويرسل أصابعه نحو السرير. همست حورية حانية:

– قم يا حبيبي. الماء ساخن. كل يوم يبرد في انتظارك. قم. اشتقت إلى أن أغسلك. جائع؟ بطنك وحدها جائعة؟

استسلم لضمتّها، وهمسُها يعميه بالصابون، يسكره برائحة الغار، يدعكه ويخنقه بالماء الحار. وكانت يداها لا تزالان تنزعان ثيابه، تجوسان زوائده وثقوبه، تحملانه إلى الحمام، تقبضان على رسغيه، تلحمان قطعة طائرة من يد بأصلها، تحيلان لمعة الساطور ضوءاً رهيفاً، فيغيب الطوبي في إغماءة أو نوم، وحين يفيق يرشها بالماء والرغاء، يلعن مثلها الطمع الذي أعمى من له حجر في الديرة كلها، يضاعف اللعن على عبد الحليم آغا الذي حرض الآخرين على ألاّ يبادلوا كمشة التراب بعلبة من الذهب، يمتنّ للمحافظ الذي نقل دائرة الطابو إلى الطويبة، يبذل له فوق ما بذلت، يأسى لما نزح من الصندوق، يزداد بأساً بسندات الطابو التي ملأت مخابئ حورية، يتباهى بما عاد به من موسم الصيد، يعد بأضعاف في الموسم القادم، يعابث الطيف الذي رعاه أربعة عشر يوماً، يزلق الرغاء والماء يديه عن الطيف الفاتن، تتشبث اليدان بالفخذين العاريتين،

يملص الفخذان والفستان والسروال، يجري خلف من جرت من الحمام إلى البساط المزوّق، يتوقف أمام سرير الصبي لاهثاً وتتوقف، تتشابك أذرع وأنفاس وثياب، يهوي جسد فوق جسد كأنهما في سباق أو عراك، ويستميت هو في النصر عليها وتستميت، وفي لحة يخوران معاً ويستولي السكون إلى أن تدخل ناهي وغرغرة عثمان، وتفضح العتمة ذلك العراء الذي ضاعف تزويق البساط.

2

تلك الليلة باح بسرّ الطوبي الانكليزي لها، على الرغم من أنه أضمر أن يكتم السرّ عنها، منذ ذكر المحافظ قريناً.

تساءلت عمن يكون القرين، وأين يكون، ووجمت طويلاً قبل أن تهمس:

– انسه. اتركه لي.

أغفى مطمئناً كما سوف يغفو كل ليلة، وهي تنثر له ما يقدّر أن العيون نقلت: الطوبي الإنكليزي يطير فوق البحر، يقطع في ساعة ما بين مقامه وشعاب مكة، يملأ حفنةً من ماء زمزم، لا تسقط من الماء نقطة، يرش وجوه الناظرين وهو يمشي على النار، يقبس من النار قبسة دون أن ينحني، ويملأ فمه بها، يمقت بنات حواء، يستولي على

قلوب النساء قبل الرجال، ولو دخلت عليه امرأة غير زوجته تهبّ العاصفة حتى يأمرها أن تسكن فتسكن.

كان التطويب قد انتهى عندما أخذ حديث الطويبي الخفي يضحكه. وكان يستزيد من الحديث كما يستزيد من ركوب حورية والطعام والنوم. غير أن الحديث بدأ بعد حين يتقطع ويقصر، فابتدأ هو يشك في أن القرين يُعجز العيون، أو أن حورية تخفي ما تخفي، وسرعان ما راحت نفسه تعاف الطعام، والنوم يملص، وعضوه يخذله، ولم تعد حورية تضحك.

هو أيضاً لم يعد يضحك، وشرع يخاتل الندم على ما لا بد أنه فرط فيه، يعدّ السنين التي انقضت منذ بارك الخضر طاهر عوانة. يناشد نبياً وفتىً نسيا حوتاً في مجمع البحرين. يحتضن القرآن ويصغي: هل أتبعك على أن تعلّمني مما عُلّمت رشدا؟ يردد سراً وجهراً: إنك لن تستطيع معي صبراً. يتحاشى عثمان مرة، يدعو الخضر إلى أن يقتله مرة، يحميه من القتل مرة، يردد في سرّه وجهره: وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. يضيق بالحنين إلى خضر، ينسى أن له ابناً آخر أو اثنين، يعنف أنواره، يقبض على عنقه الغليظة وكرشه، يسأل سراً وجهراً عما إذا كانت أيام الطهر والمعجزات قد ولّت، وينكر أن تكون حورية من يخلّص من القرين قبل أن تزوغ به الأبصار.

بغتةً تنبه إلى أن عاصفة تهب حقاً كلما دخلت عليه حورية، فامتلأ يقيناً بأن النساء جميعاً زوجات له، سواها. أخذت العاصفة بعد قليل

تهب كلما دخلت عليه ناهي أو غزالة. شرع يسلّم بأن الطويبي الثاني يتغلغل في روحه ليأتي عليه في وقت ما. وعندما أخذت تهزله هواجسه بوغت بحورية تبالغ في زينتها وغنجها، وتعدّ له عشاء يكفي عشرين ضيفاً في المدينة، وتنيم عثمان باكراً، ثم توشوش:

- احزر حبيبي: ما المفاجأة التي أخبئ لك؟

تكور متوجساً وشفتاه تسألان:

- منذ متى يخبئ واحدنا عن الآخر مفاجأة أو غيرها؟ هل نحن صغار لنلعب هذا اللعب؟

- صغار؟ لا. لكن اللعب لذيذ يا حبيبي. لو تعرف كم لذّ لي في السنة الأخيرة، استغماية هو، صحيح. أنت خبأت وأنا خبأت. أرجوك لا تنكر. مثلي أحسست - ولو مرة- بالمنافسة أو الكيد. أما أنا فمن يوم سمعت باسم من يتسمى باسمك، فهمت أننا كنا دائماً نشبك اليد باليد، ولن نموت إلا هكذا.

قالت وهي تنتزع فخذ الديك، ثم تنتزع من الفخذ قطعة وتدنو منه.

- كنت تعلمين إذن بسرّ الدكتور كولن وما صنع. ماذا تكتمين عني أيضاً؟ ما المفاجأة؟

قال وهو يزداد تكوراً وتوجساً، ويشيح عن اللقمة.

- أنت من باح لي يا حبيبي بالسرّ. نسيت؟ والمفاجأة: هو. هو ياحبيبي بشحمه ولحمه: الطويبي الانكليزي، الطويبي الخفي ظهر وبان. قرينك ينتظرك في الغرفة الأخيرة. الحقه قبل أن يموت. مازال في التابوت منذ العصر.

وقف مصعوقاً وشفتاه تتقلصان وتنتفضان، وكفه تمتد بعسر إليها. تلاقت الكفّان وهو ينادي ابن نديم المكشوح. التحمت به حورية موشوشة:

- صرفته. لا أحد يدري غيره. الفرسان أيضاً أبعدتهم. لا داعي للهرج.

تملّصت كفّه وهو يسأل حذراً:

- على ماذا نويت؟

- قل أنت.

- أريد أن أراه أولاً.

قال مستجدياً، فتقدمته إلى الغرفة الأخيرة ضاحكة، وتبعها شبحاً يتعثر في بلهه.

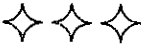

ظهر من التابوت - بأمرها- رأس عار. بعد قليل استطاع الطويبي أن يتبيّن فماً مكتوماً، وقدمين عاريتين. دار حول الرجل دورتين ثم حرر الفم. داهم الضوء والعتمة الشحيحين نباحٌ وان. خيّل للطويبي أنه سمع هذا الصوت مراراً ينوح ويستجير بالخضر. حضر الساطور فتكوم الرجل فوق قدمي حورية. قطع الساطور الحبل الذي يكبل يدي الرجل، وعاد إلى حورية.أنهض الطويبي قرينه وسأله كأنما يناجي نفسه:

- لِمَ فعلت هذا؟

- لَعنة لله على أولاد الحرام. لعنة الله على الدكتور كولن. هو السبب.

قال الرجل وهو يطمر وجهه في كفيه، واختلط نشيجه بصوت حورية يخاطب الطوبجي:

- ناد أحد الفرسان أو أرسلْ من ينادي ابن نديم، ولا تلوثْ يدك بدمه.

خاطب الرجل الطوبجي معاتباً:

- لكنك أردت ذلك.

- ابليس اللعين. ما أغواني إلا ابليس، والناس أرادت مثله ومثلي.

قال الرجل وهويتلوى. شدَّ الطوبجي شعره وأنهضه آمراً بالهدوء. انتزع الساطور من حورية وأمرها أن تسبقهما إلى العشاء. شبك كفه بكف الرجل وجرّه. ابتعدت حورية عن الطعام، فأمرها أن تقترب وهو يُجْلِس الرجل إلى يمينه. تناول الطاسة وأمر. اندفع الرجل يشرب حتى أمر الطوبجي: كَفى، وانتزع الفخذ الآخر للديك، ثم انتزع من الفخذ لقمة، وهو يفكر في أن الكلب يمكن أن يعود بشراً حقاً بعد ما يفطس، ورمى الرجل بنظرة حنونة، ثم خاطب حورية:

- أرجوك: أحضري لي خمسة آلاف ليرة.

ترددت حورية في النهوض، وأطالت غيبتها، ولما عادت شهقت منكرة أن الطوبجي وقرينه يأكلان كصديقين. تناول الطوبجي الرزمة التي رمتْ حورية خلفه، وأودعها جيب الرجل قائلاً:

- بعدما تشبع ادعْ لحورية وارحل. إياك أن تذكر ما جرى بينك وبين نفسك. ارجع كما كنت قبل أن تعرف الدكتور كولن. قلْ لي: كيف اختارك؟

قال الرجل وهو يودع لقمة حنكه:

- كنت من حراسه. كنت رئيس الحرس عندما فاتحني أول مرة.

ضحك الطويبي عالياً، ثم أسرع إلى الباب ونادى ملء صوته. ولبث ينظر من عل إلى الرجل وحورية، وضحكته تتقطع حتى ضاق الباب بفارسين، فقال:

- امضوا بضيفنا حيث يريد. أين السائق؟

كانت شفتا الرجل تختلجان مثل شفتي حورية التي همست والرجل يقف:

- افرض أنه ..

قاطعها الطويبي بإشارة حازمة، ولما عادا وحيدين قال:

- إذا لم ينفذ ما قلت اتركيه حياً واقتليني. هاك المسدس.

تناولت المسدس مبتسمةً وراغبةً في الهذر، وهفا إليها كأنه يسري في حلم، مبتسماً وراغباً في الهذر، وكان عثمان يعربش على حاجز السرير ويزقو، فسأل الطويبي:

- أهذا وقتك؟

3

احتار الفرسان في موكب السيارات الصغير اللامعة الذي فاجأهم. كان علم صغير يرفرف في مقدمة السيارة الأولى. وفي كل سيارة اثنان أوثلاثة، مع السائق أو من دونه، وليس في يد أحد سلاح.

هل يُوقِفُ أحد الوزير أو المحافظ أو فلان البيك أو النائب الفلاني حتى يأذن ابن نديم المكشوح على الأقل؟ هل يليق ذلك بمثل هؤلاء؟ ألن يجرّ غضب الست حورية أو الطوبجي أكثر من غضب ابن نديم على خرق التعليمات الصارمة؟ قد يكون الموكب قادماً للتحية، فلِمَ لا يجتهد الحاجز الأول، ويتعلل به الحاجز الثاني، ويمضي الموكب إلى الطوبجية التي لاتزال بعيدة؟ لِمَ لا يرحب الحاجز الثالث فالرابع، على الرغم من أن أحداً لم ير مثل هذا العدد من السيارات دفعة واحدة على هذه الطريق؟ لابد أن ابن نديم المكشوح على الأقل قد أذِنَ، ومن دون ذلك كيف كان للموكب أن يصل إلى هنا؟

كانت حورية نفسها تتساءل أيضاً، وهي ترى الطوبجي يُهرع ملاقياً بحرارة واحترام بالغين، ويهرب من نظراتهما آمراً بنحر الخراف. حاولت أن تتذكر وزيراً آخر ومحافظاً آخر، فاختلطت عليها الوجوه سوى وجهي عبد الحليم آغا ورعد بك الموسى. ابتعدتْ قلقةً ولغط الضيوف يلاحقها، وصوت الطوبجي يعلو تارة، يختفي تارة. وربما كان سوف يظل كذلك لولا أن الوزير أشار، فسكت الآخرون وأسكت الطوبجي سكوتُهم.

كانت ابتسامة الوزير تعرض، وخلفها تلهث ابتسامات وانحناءات، ثم أثقل الصمت حتى التفت رعد بك إلى الطوبجي وخاطبه بود:

– هذا الوفد كما ترى، لو قصد الشاه لحقق له غرضه، مهما كان الغرض. الحكومة يمثلها الوزير والمحافظ. البرلمان يمثله النواب، عداك عن الأغوات والبيكوات. وأصدقاؤك جاء باسمهم الداعي. جئنا نسلّم عليك، ولنا عندك غرض نرجو أن يتحقق.

- لوطلبتم أن أذبح أولادي فلن تخيبوا. حاشا.

قال الطويبي وهو يزدرد لعابه الذي سال. وجددت كلماته اللغط حتى أشار المحافظ قائلاً:

- أولادك يعيشون بعزك إن شاء الله. أظنك حزرت غرضنا. البلاد الآن حرّة. انتهى الانتداب وجلا المحتلّون. البلاد الآن تنعم بالاستقلال، والدنيا كلها تبدلت. هذا الوضع الذي أنت فيه علينا أن نعالجه سوية.

قال الوزير متكلفاً البشْر:

- مابينك وبين الحكومة من خصومة يجب أن يزول. أنا هنا من أجل أن نتفق على هذا. أنت لا زلت نائباً في البرلمان. هل نسيت؟ أما ما بينك وبين الناس فمن يفصل فيه غير القضاء؟ ما قولك؟

قال عبد الحليم آغا:

- هذه هي الطريقة الوحيدة، ليس إلى العدل وحده، بل إلى الأمان. وبالمناسبة: عمر هذه البرلمان صار قصيراً، والانتخابات قادمة. البرلمان الجديد أيضاً ينتظرك. ما قولك؟

غامت عينا الطويبي وجلله الحزن وهو يلجم الرعشةَ التي اجتاحته، وقال أخيراً:

- لو أردتم ذبحي فهذه رقبتي. أما إذا أردتم أن نعالج الأمور سوية، فهذه ليست الطريقة الوحيدة. الأمور معقدة من أولها، والزمن زاد تعقيدها. كرسي في البرلمان لا يقدم عندي ولا يؤخر كما تعرفون. اليوم ليس مثل البارحة. لا شيء يعود كما كان. بل افرضوا أنه عاد، فهل تصدقون أنه لن يكون بشكل جديد؟ اتركونا من

الحكومة والقضاء والبرلمان. أنا أقبل بكم جميعاً في كل شيء فهل يقبل غيري؟

تقلّص وجه الوزير، ومالت إليه أذن المحافظ، فيما قال رعد بك:

- وهذا حل معقول. قلت لكم: لن يخيبنا الطويبي.

التفت الطويبي إلى رعد بك مبلبلاً، ثم التفت إلى الوزير كأنه يلجأ إليه.

ابتسم الوزير وران الصمت حتى قطعه المحافظ:

- موقفك هذا يستحق كل تقدير ويتطلب التفكير. أظنك تعرف حق المعرفة أن الحكومة حكومة. ليست جاراً ولا قريباً ولا قطعة أرض. التحكيم بينك وبين الآخرين حلّ معقول، وهذا عبد الحليم آغا نفسه، لا أظنه يرفض.

قال عبد الحليم آغا مبتهجاً:

- حتى الذين سال الدم بينهم وبين الطويبي لا يرفضون. باسم الجميع أنا أقبل، لا باسمي وحدي.

قال الوزير ونظراته تفرّ من الطويبي:

- لابد من مبادرة منك حتى تستجيب الحكومة. يمكن أن نبدأ خطوة خطوة: الموظفون مثلاً يرجعون إلى أعمالهم في مراكز الأقضية والنواحي. لا يمكن للسلاح أن يبقى في أيدي السرايا. الحكومة جمعت السلاح من كل المواطنين بعد ما جلا الاحتلال. كما تعلم. السلاح الآن بيد الجيش، بيد الدرك. لا بد أن نجد حلاً لهذه المشكلة. وقد يكون من حقك ألا تسلّم الآن بكل شيء، كما هو

من حق الحكومة أن تقول لك: خطوة منك خطوة مني. لا تنسَ: مجيئنا هذا هو الخطوة الأولى.

قال المحافظ:

- حتى لو قالت الحكومة: ثلاث خطوات منك ونصف خطوة مني فهذا حقها. كل منا في النهاية مواطن، لا أكثر ولا أقّل.

قال رعد بك:

- بالتحكيم مع الآخرين قطعنا نصف الطريق.

سأل الوزير الطويبي برقة:

- هل ترافقنا؟

- إلى السجن أم إلى المشنقة؟

سأل الطويبي بأسى، فقال الوزير متأثراً:

- لوكان هذا لما جئنا. أعرف أن شكوكك الآن كبيرة، كما أن شكوك الحكومة أكبر. أنت تعرف مثلي. لو رافقتنا فستقدر الحكومة هذا خير تقدير. سلفي عرض عليك أن يبقى رهينة هنا، وأنت من نقض الاتفاق تلك الأيام. هل تريد رهينة الآن؟

قال المحافظ:

- مثل هذه الكلام يزيد الشكوك، يعقد الأمور، ولايساعد على صفاء النية.

- قدومكم خير وبركة. وما أحلى من الحلاوة إلا الصلح بعد عدوان. بعدما نأكل لقمتنا نمشي معاً.

قال الطوبجي بأناة بالغة وهو مطرق. وفوجئ بهم ينتفضون ويتدافعون إلى عناقه. وكانت حورية تقف واجمة على الدباقة الغربية. وقد بدا عليها أنها سمعت بجلاء كلمات الطوبجي الأخيرة على الأقل.

4

من النافذة الصغيرة أطل على البحر، كما ألف كل صباح منذ اقتيد إلى بيروت، وصار له هذا البيت الجميل، كانت الزرقة تغمره بأطيافها، فيغمرها بأطيافه، ويمضي كل صباح في رقصةٍ لموجة، أو سكنةٍ لموجة، أو أغنية أو حكاية لموجة: هو يبث وهي تبث. ومثلما يبحر أو يطير يَشْهَدُ كلاهما على ما تطوي وتنشر أعماقه، يتحرق شوقاً إلى حورية، ينشد الغفران على المضيّ بلا وداع، يكابر في الصواب الذي اختار، ينادي: ياحبيبتي: من يدعي أنه يعرف ما تخبئ له الأقدار مثل الذي يدعي أنه أقوى من الأقدار، هذا حمار وهذا حمار.

وفي كل صباح كان النداء يترجّع أوجع: الوزير غدار، المحافظ غدار، الحكومة غدارة، ما من أحد يخلو من الغدر، حتى الكلب الوفي. كان النداء يشف، الموجة، هو، وأحدهم يستسلم، يوقّع على ما أصرّ عليه رئيس الوزراء: أتعهد بعودة الأمن والنظام إلى المنطقة، ثم يستسلم لمقامه الجبري، يُشْهد طاهر عوانة على رحابة الرقة وضيق العاصمة،

ويصدق الوزير: الإقامة الجبرية مؤقتة. ولأنها تطول وهو يهزل، يصدّق التقرير الطبي الذي دبره الوزير: طاهر عوانة الملقب بالطويبي يحتاج إلى العلاج في بيروت.

الطويبي هو طاهر عوانة، وطاهر عوانة هو الطويبي، إذن: الإقامة الجبرية والمنفى، الرقة أخت بيروت، النهر مثل البحر، سوى أن واحداً كان في البداية، وواحداً صار في النهاية. والوزير سعيد بالمخرج الذي دبّر. وأحدهم تنفرط منه دمعة أو ترتخي مفاصله، يعجب مما يحل به من الخور منذ شرّف الطويبة ذلك الوفد الحكومي الشريف، وربما قبل ذلك بقليل أو كثير، حتى بات لا يقوى الآن إلا على أن يتقلب بين الذكريات. وحين ينوء بها يهبط، يعدّ الدرج، يحيّي البواب الذي يتبعه من بعيد، يود لو أنَّ أحدهم أكبر شجاعة فيأتي مصارحاً: أنا موظف، أنا أيضاً في الإقامة الجبرية مثلي مثلك. عليّ أن أعدّ خطواتك. ولو فعل البواب فسيدعوه الطويبي: تعال نمش معاً، نتسلّى، نشرب الشاي بعد قليل على الكورنيش، نعود إلى البيت، يقدم لنا الخادم الغداء نتغدى ثلاثتنا معاً، فهو أيضاً موظف مثلك ولا يهم أن أكون اخترته بنفسي. هو أيضاً يعدّ أنفاسي، ينام وقت أنام، يحلم إذا حلمت، يقف على الشرفة، يحسّ بما أحسّ، يفكر بما أفكر، يسلّمني لك حين أخرج، فتسلّمني أنت لهذا المدى من البحر والسماء والحرية والربيع والنسيم، تماماً كما سلمتني حكومة لحكومة. لكنّي أقصّ المدى بنفسي. أقصّه على قدّي حتى أختنق به، فلا تأسَ. لستَ مسئولاً عن كمدي، ولا الخادم، ولا الوزير. لا أحد يجني عليّ غيري. بل أنا من يجني اليوم على سواي. أجني على حورية. أجني على خضر الذي كبر وصار يقاطعني:

كل يوم يسألونني: أبوك كافر؟ أبوك رئيس عصابة؟ وما دينك؟ صار لساني يتلجلج أمام ابني: قل لهم: كل مين على دينه الله يعينه. صار صوت خضر يصرخ أمامي: الدين المخبّى صرمايه، هكذا قال أستاذ الفيزياء. من أين حفظ الأستاذ هذا المثل؟ عمري ما سمعت به.

لكن حورية لو سمعت خضر لنهرت: قلْ لأستاذك أنا ابن زعيم. قلْ لمن يسألك: أنا ابن قائد، ابن حكيم، تفاخرْ عليهم، ابطحْهم، لا تنحن لهم. أما أخوه فكأنه ليس من صلبي. منذ وُلدَ نسيته. هو ابن غزالة، وغزالة بنت الشيخ ناظر، والشيخ ناظر لا زال يحمل عليَّ في العاصمة مثلما كان يحمل عليَّ في الطويبة الشرقية، كأن الزمن وقف به. أقول له: ارجع إلى ضيعتك. أنت الآن حرّ، وأنا مطرحك هنا. أنا المبعد لا أنت. لكنّ أيمان الشيخ لا كفّارة لها: لن أرجع إلى الطويبة الشرقية ما دام الطويبي على وجه الأرض. هل عليّ إذن أن أموت؟

منذ اكتشف أن شهره الثاني في بيروت يكاد ينصرم، أخذ سوال الموت يطلع له في أي وقت وفي أي مكان: ضحى على الكورنيش، عصراً في كافيتريا السان جورج، مساءً في إعلانات البرج الباهرة، نصف الليل في عتمة السرير؛ وبخاصة بعد أن يوصل ولديه إلى المدرسة عصر الأحد. وربما كان ذلك ما جعله يهرع ملبياً دعوة الدكتور كولن فور وصولها، وكان في غاية الرهق.

تأمّل الرجلَ الذي لا يستطيع أن يعالج دمّلة، ولا يصلح أن يقود واحدة من السرايا التي يقود ابن نديم المكشوح، ولا أن يعلّم خمسة أطفال ممن كان الشيخ بركات يعلّم أمام المزار، فكيف يكون إذن هذا الذي تكاد أمعاؤه تبين من تحت قميصه، ولا يزن خمسين كيلو، ويتعتع بالعربية، أستاذاً في الجامعة ودكتوراً في التاريخ وكولونيلاً في المدرعات، وقبلةً لوزارء ونواب ورؤساء وأحزاب وضباط؟ كيف يكون صانعاً لطوبي جديد؟

وتأمّل المستر كولن ضيفَه، كأنما يرى واحداً ممن عاشوا قبل المسيح، يدّعي النبوة أو يتألّه. وفكر – كأنه يفعل لأول مرة– فيما يجعل الناس يصدقون شخصاً مثل الطوبي في مثل هذا العصر؟ وقد يكون تمتم بذلك بصوت مسموع، وهو ساهٍ إذْ إن الطوبي ضحك برقة، وتمتم:

– ماالذي يجعلك تصدق البابا؟

بهت المستر كولن، وتماثل له الطوبي الذي صنع يتصدر ستةً أو سبعةً من مريديه، والمريدون يتلقفون كلمات المسيح الانكليزي: نحن نطلب رضا البابا مهما فعل. اطلبوا رضاه، وكانت سبابته تنغرس في صدر من كان قبل شهور رئيس حَرَس خامل وحسب!

تبرم الطوبي بالصمت، وظلت جلَسته تتقلقل حتى همس المستر كولن:

– منكم من قال قبل مئات السنين: إن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم. هو ابن الراوندي. لا أظنك سمعت به ولا بهذا الكلام.

احتقن وجه الطوبيي، وحثّ ذلك المستر كولن على أن يتابع:

- بل منكم من رأى النوم أو الصرعة خاصة من خواص النبوة، ينكشف فيها الغيب. هو الغزالي. لا أظنك سمعت به ولا بهذا الكلام.

أحسّ الطوبيي أن الانكليزي يعريه من كسائه، ليس بين جدران المكتب البهيج، بل أمام الناس جميعاً، من لندن إلى الطوبية. وأطرق إلى أن رمته يدٌ بستر، والمستر كولن لاهٍ بغليونه. ارتفع رأس الطوبيي قليلاً وقال:

- في الإكليل تخيط أم العروس أو أم العريس كمّ فستان العروس بسترة العريس. المستر كولن يعتقد أن هذا يحمي العروسين من الفصال. وبعد الإكليل لا يجوز أن تخرج العروس إلا إلى فرحة. لماذا؟ مستر كولن: بعد العقد بين الزوجين لا تجوز الرجعة لهما من الباب نفسه. أظنك تعتقد أن هذا يحمي من الشر.

- أنت تعرف إذن عنا الكثير. أفادتك جيرة الخوري امطانيوس، وما ضاع تعب المبشرين.

قال المستر كولن ضاحكاً، فقطب الطوبيي وقال محتداً:

- أعرف عنكم وعنا، وعن غيركم وغيرنا. أعرف الكثير ولا أعرف إلا القليل. هل يخفى عليك أني مررت أثناء فراري من الأتراك بكنائس وكُنُس كما مررت بمساجد وجوامع ومزارات؟

قال المستر كولن:

- وحفظت كثيراً وقرأت كثيراً، أعرف. الحياة، نفسها معلم كبير وكتاب كبير، وأنت استغنيت بهذا عن المدرسة وعن الجامعة.

ولكن لا تصدقْ: لاشيء يغني عن شيء. هل ساءك كلامي؟ لم أقصد بالتأكيد. أنت من بدأ. ساويت نفسك بالبابا مباشرة. يمكن أن هذا استفزني. أنا أعتذر، وأحدد لك الآن قصدي: أنا مسيحي. أنا مؤمن. في تاريخكم وفي تاريخنا أيضاً ما يجعل ظهور شخص مثلك معقولاً أو طبيعياً، بل ضرورياً. منذ الخطوة الأولى وظهور الخضر في الطويبة، أو العذراء في مانشتسر، إلى الانفراد بحكم منطقة أو الحصول على كرسي في البرلمان، هكذا هي الطريق: من الدين إلى السياسة. بعد ذلك قد يكونان معاً، قد يُنسى الدين وتبقى السياسة، قد يعود الدين وحيداً كما كان في البداية. والإيمان، العقيدة، أساس في سائر الأحوال، على الرغم مما يقال عن المصلحة. أين أنت الآن؟

- يجوز في آخر ما ذكرت، لا تظن أن حبس بيروت الكبير هو السبب.

- أفهمك. هل هذا من علامات النهاية؟ بالنسبة لي هكذا أرى. هل عليّ أن اعتذر أيضاً؟ اسمع هذا الذي جرى معي: أمي، لروحها الرحمة، كانت ترويه لي دائماً. عندنا يَحسُن للطفل في العمادة أن يصرخ، أن يبكي، حتى لا يمرض من بعد. قد يضطر العراب أو العرابة إلى قرص الطفل من أجل ذلك. أمي ماتت وهي تتعبج من أنني لم أبك. لم ينفع معي القرص ولا الضرب، ولم أمرض من بعد حتى هذه الساعة. الشكر لله. أظن أن أمي كانت تتمنى أن أمرض مرة واحدة، مرضاً خفيفاً، لتتأكد من أنني مسيحي صالح. هل أعجبتك حكايتي؟

ابتسم الطويبي وتنهد قائلاً:

- حلوة. لكنك لم تدعني لأسمعها. بالنسبة لي عندي من الوقت الكثير لأضيعه، وخاصة في صحبة المستر كولن.

- وبالنسبة لي ليس مثل هذا الحديث هدراً للوقت. نحن نخوض في الدين والسياسة والشعوب، في التاريخ، وهذا اختصاصي.

- هل هذا ما جعلك تصنع لي قريناً؟

كنت أنتظر أن تسألني منذ وصولك. ولو رفضت دعوتي لقدرت السبب في هذا. بل إني لا أكتمك: خوفي من أن يكون هذا كدّرك، هو ما جعلني أتأخر في دعوتك. الآن وقد سرني لقاؤك أستطيع أن أعترف لك: ليس ما ذكرت وحده ما جعلني أجرّب مع حارسي المسكين. أحسنتَ بالاسم الذي سميته به: القرين. ربما كان دافعي السياسي أقوى. ربما خلطت الغيرة من الفرنسيين بالمصلحة الاستراتيجية لبريطانيا العظمى. بل أعترف الآن أني كنت ساذجاً. والأَوْلى بي كان أن أزورك قبل الكابتن آلان. أرجو أن يبقى هذا الكلام سراً لنا. أنا أحدثك الآن كصديق.

- وأنا أيضاً، على الرغم من أني أبطنت لك العداوة مدة.

- أما أنا فلم أنظر إليك لحظة كعدو. كنت أقوم بوظيفتي، أجتهد. والآن انظر يا صديقي: في الوقت الذي بدأتَ فيه أو بدأ طاهر عوانة، كان شبان مثلك أو مثله، سوى أنهم دخلوا المدارس والجامعات، كانوا يؤسسون الحزب الشيوعي في بلادكم. أنت لم تهتم به ولا بغيره من الأحزاب، أعرف. الطويبي والشيوعي طلعا معاً في هذه البلاد. بعد ذلك قامت أحزاب وجمعيات كثيرة، منها ما

هو علماني، منها ما يناضل باسم الفلاحين وباسم العمال، منها ما هو ديني، وكلهم ضدك. أقصد: دروبهم تتناقض مع دربك. كلهم أحلامهم أكبر من أحلامك، وأدواتهم أكبر من أدواتك. ومنهم من سيغزوك في الطوبية نفسها، بالتأكيد. ما يشغلني يا صديقي هو هذه البلاد التي يقوم فيها كل ما ذكرت دفعة واحدة، بعد عمر طويل ستموت، وسيموت من يقود هذه الأحزاب اليوم. ماذا سيتبقى منكم جميعاً للمستقبل؟ هذا ما أفكر فيه منذ فترة، من قبل الخرب. وقد حاولت أن اكتب فيه، وسأحاول. لذلك أستفيض معك، وأرجو أن تتكرر لقاءاتنا. أنت ستفيدني كثيراً.

- بل أنت من سيفيدني.

قال الطوبي، فضحك المستر كولن، وقفز إلى الباب معتذراً عن التأخير في تقديم الشاي، ولم يعد إلى مجلسه حتى دخلت فتاة صغيرة تتراقص بكأسين مذهبتين، وتتغامز محيية. غضّ الطوبي حتى انصرفت الفتاة، وقال المستر كولن:

- أفهم إشارتك. ثق أنني لن أبخل بجهدي. وضعك الآن صعب. أنا معجب بحكمتك. أنت تتصرف الآن بحكمة، وهذا يساعدني فيما يمكن أن أفعل من أجلك. لا حظْ يا صديقي: لو كان هذا محور لقائنا لانتهى بدقيقة. لذلك أسألك: ما الذي تعتقد أنه يبقى منك للمستقبل؟ الأحزاب الدينية والقومية والشيوعية تؤسس لمستقبل بعيد. الطائفية أو العشائرية أو الإقطاعية أو القبلية لم تعد تليق بهذا العصر، حتى لو عاشت مائة سنة أخرى. ليست تلك الأحزاب هنا وحدها من يقول هذا، نحن سبقناها. بل منّا نحن جاء

قولها هذا.والآن ياصديقي: افرضْ أن الدولة أو الدويلة أو ما يشبه، كما يسمّون الآن ما أقمت في منطقتك، قد انهارت، برضاك أو من دونه، فماذا يبقى؟

قال الطوبي بجلال:

- يبقى الكثير. يبقى ما أؤمن به. ما آمنت به الناس. لا تقلْ: هذا لا يليق بالعصر. إذا كنت فهمتك فعصرنا غير عصركم، كما أن الإيمان هو الإيمان في كل عصر، وأنت قلت مثل هذا لتوّك.

- أوافقك مبدئياً. ولكن نحن نحاول، ومنكم من يحاول أيضاً، ليكون عصرُكم عصرنَا، عصرَ العالم، عصراً واحداً.

قال الطوبي بإصرار:

- حتى لو حاولتم أو حاولنا. وإذا صحّ كلامي فالطائفية هنا باقية، العشائرية، الأديان، الإقطاعية، والأحزاب التي عددت، وأنتم، وأنا، أكثر مما تقدّر بكثير. أظنّ أن هذه طينتنا. أنت تفتّح الآن عيني وقلبي.

- كما ترى بيننا الكثير مما نختلف عليه، والكثير مما نتفق عليه. اسمح لي أن أسألك أخيراً: ماذا فعلت بالقرين حتى خرس؟ لا أكتمك: حاولت معه كثيراً بعدما وقع في يدك، وخبت.

- ذبحته ثم أحييته. هذا كل شيء. هل نسيت اعترافك بالسذاجة والغيرة وتغليب السياسة؟ أنت كما قلت كنت تؤدي وظيفتك، وأنا لا أفهم هذا ولا يعجبني. المهم أن الطوبي لا يقوم هكذا. أنت ذبحت حارسك المسكين قبلي.

- كيف؟

- عندما سمّيتني أو سمّاني غيرك: الطوبيي الفرنسي. بهذا صار اسمه الطوبي الانكليزي. بكرة يطلع الروس بالطوبيي الروسي والأميركان بالطوبيي الأمريكي واليهود بالطوبيي اليهودي. ما رأيك؟ نكتة حلوة؟ لا، بائخة. هذا لا يصحّ. ما رأيك؟

- لكن اسم الطوبيي الفرنسي لم يذبحك.

- لأنني الطوبيي. لأنني لم أكن حارساً يقول لي سيدي: كنْ فأكون. أو لأن أرضنا يكفيها طوبيي واحد. ما رأيك؟

- أفحمتني. والآن أصدق ما يبقى من الطوبيي لهذه البلاد. لا أقصد ما تعتقد به. هذا قد يأتي عليه العصر، عصرنا أو عصركم، لا فرق. هل عليّ أن أعتذر؟

- ماذا تقصد إذن؟

- أجبني أولاً: هل فكرت بخضر، ابنك، أم بابن حورية: عثمان، كوريث لك؟ لا أظن أن ابن الست غزالة يعنيك في هذا.

- أنت لا تعرف كل شيء عني، بل تبصّر أيضاً. هل تعلمت عندنا قراءة الكف أو الفنجان؟ لا أنكر عليك أني فكرت فعلاً بما تقول. يوم وُلِدَ خضر فكرت. الناس جعلتني أفكر منذ حملتْ ناهي. ثم نسيت الأمر حتى هذه الأيام. في بيروت عدت أفكر بهذا، ولكن لماذا تسأل؟

- الطوبيي يورث ابنه. هكذا فعل السابقون وهكذا يفعل اللاحقون. مازال عندنا أيضاً من هذا. أنت تعرف التاج البريطاني. أنا لا أفضل الملوك على الرؤساء. هكذا كانت البداية. الفرق بيننا وبينكم الآن كبير. المزارع والمصانع يرثها الأبناء،

نعم، ولكن: الوزارة؟ النيابة؟ الإمامة؟ حتى الطريقة الصوفية يرثها ابن الشيخ أو أخره! هناك يا صديقي مالا يورّث لأنه ليس من حقك. ليس من حقك أن تورث الطويبي لابنك. يمكن أن تورثه ما طوبت. مارأيك؟

- ظننت أننا اقتربنا من بعضنا. ظننت أننا نفهم بعضنا جيداً. من يمنعني عن هذا الحق؟

- مادام الناس لا يفعلون فلا أحد. من حقك أن تورّث. من حقك أن تفكر بالخلود. من لا يفكر بالخلود؟ أنت عندك خضر لتفكر بهذا. من جهتي: للخلود طرق عديدة، ولكن لا شأن لنا بهذا الآن. قل لي: سواء بقيت لك دولتك أو دويلتك أم رجعت كما بدأتَ: طاهر عوانة أو الطويبي بسّ - هكذا تقولون- هل يمكن أن تترك مطرحك لغيرك؟ للست حورية مثلاً؟ لابن نديم المكشوح، لأي كان، مهما كانت جدارته، ومهما عجزت؟ حتى ليوم واحد هل يمكن أن تفعل؟

- هذا يعني أن أقتل نفسي قبل حينها بيوم.

- لن تفعل. يمكن أن تقتل من ينافسك، لا يهم من يكون. وهذا أيضاً ما أظنه يبقى من الطويبي للمستقبل. هكذا كانت البداية في كل مكان. الفرق الآن بيننا وبينكم كبير. رئيسكم يهيئ منذ شهور كي تجددوا انتخابه، حتى لو كان الدستور لا يسمح. هو يعدل الدستور. أنتم تعدلونه. أنتم جميعاً في حقيقتكم ملوك. أقصد: في أعماقكم. وهذا ليس معناه المدح دائماً. الملوك فيهم ما يُمدح وفيهم ما يُذّم، أليس كذلك؟

- أبقى حتى أموت، وأوّرث ابني من بعدي: هذا هو إذن ما يبقى مني كما تقول: فهمت. ما العبرة في هذا؟ لست فيه الأول ولا الأخير. لست الآن الوحيد. ما قيمته؟ ما من شيء آخر؟

- ألا يكفي؟ هكذا تبقى إلى الأبد. هكذا تخلد يا صديقي، حتى لو نسي الناس معجزاتك أو كذبوها. حتى لو لم يكن لخضر الطويبي معجزة واحدة. لا تخفْ. الناس تخلقها له. الناس بحاجة إلى المعجزة دائماً، خاصة في هذه البلاد. احزر السبب.

- لأنهم مؤمنون. مهما اختلفت أديانهم وعقائدهم فهم مؤمنون.

- وأيضاً لأنهم يخافون. لأنهم عاجزون وجاهلون. هكذا كانت البداية في كل مكان. مازال عندنا أيضاً من هذا. الفرق الآن بيننا وبينكم كبير. لا تؤاخذني على التكرار.

- أرأيت إذن كم هو عصرنا غير عصركم؟ أرأيت كيف أن عصرنا لن يكون عصركم؟ وإذا كان منا من ينشغل بهذا كما ذكرت فلماذا تنشغلون أنتم؟ اتركونا بهمّنا.

- ماعاد يصحّ يا صديقي. هذا هو التاريخ اليوم. نحن هنا. نحن في الهند. نحن في كل مكان، بمن شاء أن يتوحّد بنا، وبمن لا يشاء. هذا أيضاً ما كنت أفكر فيه قبل أن تنتزعني من الحرب الجامعة، وتؤكده لي. هذا ما أحاول أن أكتب فيه منذ عشر سنوات، وعسى أن أنتهي منه قبل عشر سنوات.

- لو عشتُ حتى ذلك الوقت أعدك أن أتعلم الإنكليزية لأقرأ كل ما ستكتب.

قال الطوبيي مشرقاً، ووقف المستر كولن مصافحاً بحرارة ومشدداً على لقاء قريب.

5

على الرغم من حرصهما معاً ظلّتْ لقاءاتهما متباعدة حتى غادرا بيروت: المستر كولن إلى جامعته، والطوبيي- وقد سُمِحَ له أخيراً- إلى الطوبية.

كان الطوبيي عقب كل لقاء – بخاصة اللقاء الأول- يستذكر من علّموه. وفي وجه المستر كولن وتعرجات وصوته وحركاته توحّد المعلمون: الشيخ بركات، القرآن، جدول الضرب، أبونا وسّوف، الإنجيل، شيخ آخر، أبونا آخر، أفندية، تواريخ وقصص وقصائد، أمثال وكتب صغيرة غالباً ومخلّعة غالباً، أحاديث شيقة وأحاديث مملّة، وصار يضيف الجرائد والمجلات؛ إلا أن المستر كولن سرعان ما صار فريداً بين المعلمين، فحُقَّ له أن يكون ضابطاً وأستاذاً ومؤرخاً، وطبيباً لوشاء، يضيّع من الطوبيي ذكرى أولاء ويبعثها على هواه، يستوي هو والمدرسة الكبرى أو الجامعة الكبرى: الحياة، كما كانا يرددان ويضحكان.

كان يتحسر على ما فاته لأنه لم يلتق الصديق الانكليزي قبل سنة، قبل عشر، منذ كان طاهر عوانة، فلو كان ذلك – كما بات يعتقد

باعتداد- لكان للطويبي شأن آخر. ولولا المستر كولن لـزادت أمـور الطويبي مع الحكومة صعوبة. كان ذلك قد بدا بجلاء منذ جاء رعد بك الموسى وسكرتير رئيس الوزارة أول مرة. إلا أن الصديق صنع لصديقه ما هو أهم: جعل الطويبة أصغر بكثير وأكبر بكثير. أزال عن عيني صديقه غشاوة كادت تقتله. كشف له مستقبلاً آخر يخرج فيه الطويبي، مثل دودة القز من شرنقتها، سوى أن دودة الطويبي تحيا، تنتشر في طول البلاد وعرضها، ويندغم هو في الزعماء والأحزاب والبرلمان والأغوات والفلاحين، في الكبار والصغار، ويكون فوقهم ومنهم معاً. كان ذلك يصير التحدي الأكبر، كما ردد المستر كولن في اللقاءين الأخيرين، والطويبي يتشرب كلماته، ويتبدل أسرع وأقوى منه في الشهور الأولى. وقد يكون ذلك ما يسّر لقاء السان جورج مع سكرتير رئيس الوزراء ورعد بك، ويسّر أخيراً أن تنتهي الإقامة الجبرية في بيروت.

قبل ذلك كان أشبه بمن يراوح مطرحه: عادت بعض المخافر إلى بعض الأقضية والنواحي، تراجع الفرسان أقرب إلى العرين. غير أن الحكومة لا تعدّ ذلك ذا بال. ولولا الإنكليز – والفرنسيون، كما أكد المستر كولن بنفسه- لما انتظرت الحكومة كل هذا الوقت، ولاستعادت الطويبي إلى عرينها هي، وأودعته السجن بدلاً من أوتيل الأمباسادور. أما الحملة القاضية فهي جاهزة دوماً وقادرة. وشكوك الحكومة في أن الطويبي راغب أو قادر على أن يفي بتعهده، تكبر. فإلى متى تظل الدالّة الإنكليزية أو الفرنسية فاعلة؟ إلى متى تصبر الحكومة، ويصبر الطويبي نفسه؟

لابد من جمع السلاح. لا حاجة له في المستقبل إلى السلاح. صارت قناعة الطوبجي بذلك أكبر من قناعة المستر كولن والحكومة. لكنه اختار أن تكون الخطوة الأولى إلى ذلك تطويع من يرغب من الفرسان في الجيش أو الدرك. فمن أين هبطت عليه هذه الفكرة؟ هل هي بصيرته المتقدة الجديدة كما علق المستر كولن، أم أنه التقط فلتته لسان -وربما إشارة مقصودة- من سكرتير رئيس الوزراء أو من رعد بك أو من جريدة؟

هكذا يسلّم الفرسان سلاحهم راغبين، يستعيضون بالجيش أو الدرك أو الهجانة عما يفقدون. هو لايريدهم أن يفعلوا مكرهين. الإكراه سوف يفاقم الغلّ في الصدور. ولو جرى الأمر كما يتمنّى فسيكون هو أيضاً أكبر أماناً وتحسباً لأي غدر. الخصوم يتربصون داخل الحكومة وخارجها، وأي عفو عام أو خاص وحده قد لا يكفي غداً لو كفى اليوم. أما حورية، فربما كانت لديها العقدة الكبرى.

كان ذلك بعض ما شغله قبل أن يخطّ كتابه إلى الست حورية وابن نديم المكشوح وقادة السرايا وكافة الفرسان. ورسم قلمه في الهواء أسماء الأنوار واحداً واحداً، ثم توقف مكبراً التقيّه والكتمان. وأسف لأنه لا يستطيع أن يباهي المستر كولن بما سوف يبقى من الطوبجي، مما لا يقدره أحد.

بيد أن نديم المكشوح حضر مستنكراً. وتضاعفت جرأته عندما نقل رفض الست حورية وقادة السرايا والأنوار والفرسان.

تذكر الطوبجي صادق العروضي والشيخ بركات. وودّ لو أن ابن نديم المكشوح يموت ميتة أسوأ، على غير يده هو. كان يصغي إليه

بحياد، حتى إذا عدّ الذين ارتدوا حيث عادت مخافر الحكومة، أمره بالسكوت ثم بالانصراف، وقبل أن يطبق الباب خلفه قال:

– هات لي عثمان بسرعة. لا يجوز أن يتأخر عن المدرسة، وحين ترجع نتابع الكلام.

وذُهِلَ وقد عاد وحيداً لما تبدل من الآخرين ومنه. وفكر وهو يسرع إلى المستر كولن في أنه ما طلب عثمان للدرس. فالولد لم يتأخر عن المدرسة، وإن هي إلا حيلة ليمسك بحورية من موجعها حتى ينفذ كتابه، وكي لا يُرفض له أمر. ولئن أقبضه ذلك، فقد استحسنه عندما قال المستر كولن:

– من الطبيعي أن ينفضّ عنك من ينفضّ. من الطبيعي أيضاً أن يجرّ رفض كتابك رفضَ غيره. ماذا تتوقع؟ لكنْ من الضروري الآن أن تظل كلمتك مسموعة. هذا أفضل للجميع. هذا يجعل التسوية أسهل وأسرع، وأقل ضرراً لكم.

كان المستر كولن يبدو إذْ ذاك تائهاً أو منفلشاً. وتعلل له الطويبي – كما تعلل هو – بالسفر الوشيك. وحين خلت بيروت منه أحسّ الطويبي أنها تصغر وتوحش، حتى لتكاد تغدو حقاً سجناً كبيراً، ويغدو هو سجيناً عاجزاً ومنسياً، فلا ابن نديم المكشوح عاد، ولا عثمان أتى. والمستر كولن لا زال صوته يقطع صفير البانحرة: الحكومة تشك في أنك أرسلت إلى الطويبة سراً تحرّم على الفرسان أن يتطوعوا في الجيش أو الدرك. غير أن البشرى لم تتأخر. وها هو بدوره يتوه وينفلش، ولا ينتظر حتى الصباح، فمن يدري: قد تتراجع

الحكومة عن قرارها، وتمنعه عن الطويبة من جديد، بل قد تهرب الطويبة نفسها، وقد لا يطلع الصباح أبداً.

كان كل شيء يشقشق مثل الفجر: القمم المروسة بالصنوبر، نجمة الصبح، العواء، الحاجز الذي أنكره قبل أن يصيب الجنون البنادق، الجنون الذي أيقظ الناس هلعين، الهلع الذي انقلب فرحة أدمعت عينيه، وصوتٌ يزجر الفرسان، حورية تعصر رجلاً وتبكي، عثمان يهزج: بابا بابا، ناهي وغزالة تقبلان يد العائد، اليد تمسح على الرأسين، ابن نديم المكشوح يلاعب البندقية، السنديانة تتمطى، الغبش يظل عينين لم تنطبقا طوال الليل، والوجوه التي لم ينقطع مدّها طوال النهار تنبهم حتى تأخذ العتمة تجلوها. فينسحب الطويبي إلى الداخل.

كان الرهق قد هدّه، لذلك عفّ عن الحمّام وعن العشاء. كان لا ينشد غير أن ينام. إلا أن حورية لا تهدأ ولا تسكت: أغسلك وأنتم نائم. الطويبي لا يناله تعب. أنا بنفسي طبخت. عثمان صار شاباً. صعب عليّ أن أفارقك وأفارقه. كيف كان لي أن أرسله لك حتى مع ابن نديم المكشوح؟ لجنة التحكيم أصدرت قراراتها. ابناء الحرام يريدون أن يرجع كل شيء كما كان. فشروا. كل ما طوبناه باسمك أو باسمي أو باسم ناهي وغزالة والأولاد، حكمت اللجنة ببطلانه. والمال الذي دفعنا يا حبيبي؟ كيف نقبض بالتقسيط ممن تصرّف بما قبض لقاء التنازل؟ وما قبض المحافظ ورئيس دائرة الطابو وغيره وغيره ضاع علينا. الماء برد والطعام برد. مابك؟ كأنك مريض! حتى

هذا الموسم حكمت اللجنه أنه ليس من حقنا. الفلاحون الذي وضعوا يدهم على قطعة هنا وقطعة هناك، حكمت اللجنة بحرمانهم من هذا الموسم أيضاً. لو كانت محاكم الحكومة من حكم لكانت أرحم. الفلاحون رفضوا تسليم الموسم أيضاً. لا نصفه ولا ربعه ولا حبة. أنا أيضاً أمرت: لا تسلموا. هدتني غيبتك يا حبيبي. أنت كنت تسرح وتمرح في بيروت وأنا هنا من مصيبة إلى مصيبة. جاءنا محافظ حنون مثل أمه. صار أحنّ على الفلاحين منا. القائمقام أيضاً، مدراء النواحي، من أين هذا الحنان كله لولا النكاية بنا؟ صار الموظف لا يقبل هدية، فكيف بالرشوة؟ الدركي صار عفيفاً! أنا أعرف ما يجري في الأماكن التي عادت إليها الحكومة. ما كان لنا أن ننسحب من شبر. لو طار رأس دركي واحد لما كان هذا كله. حتى من عيوننا ارتدّ أربعة. نصف من كان لنا في الطويبة الشرقية ارتدوا، وعلى رأسهم نورهم. الشيخ ناظر ميمونة هو السبب. بالله لا تضرّ غزالة بسببه. تسعة من الفرسان وثلاثة من قواد السرايا تركوا سلاحهم واختفوا. عيوننا تتبعتهم حتى أفلتوا منها. حتى عيوننا أخذت تعمى. زدت رواتب الفرسان يا حبيبي واحترت فيمن أعيّن بدل القواد الهاربين. من بعد الطويبي خلت الدنيا من الرجال. كيف رضخت للحكومة وكتبت للفرسان أن يتطوعوا في الجيش؟ كذّبت عيني وقلت: هذا ليس خط الطويبي. يريدون أن يجمعوا السلاح؟ فشروا. مليح أنك رجعت في هذا الوقت. قم الآن. لن تنجو مني، لا إذا تقلبت ولا إذا شفعت لك نجوم السماء. أنا مشتاقة لك. إياك أن

تكون نسيت حورية المرهج في بيروت. أنا أذكّرك بها. إما أن تقوم وإما أن أشيع بكرة على كل لسان: الطويبي شاخ وهرم، ومن لا نفع منه في الليل لا نفع منه في النهار.

كانت تتصرف به كأنه دمية صغيرة، وكان قريراً باستسلامه، وربما لذّ له أن تضاجعه أخيراً كما كان يضاجعها، لكأنها غدت الطويبي وغدا حورية، بل ناهي أو غزالة. وحين شبعت من الدمية راحت تهدهد لها كما كانت تهدهد لعثمان، ولم تلبث أن أغفت وتركتْ رجلاً لا ينشد إلاّ أن ينام.

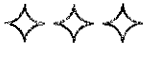

لكن النوم يجافي وينقلب سهداً. يصل ليلاً بليل ينفخ الجفنين، يورّس الوجنتين الذابلتين، والدوامة تدور بالطويبي وحده، منذ أمر بجلد كل من ارتدّ مائة جلدة، سواء أعلن التوبة أم ظلّ معانداً. ومن لا يتوب ما يصنع به؟ هل يكون فعل مثل ذلك بمن ارتدّ إبّان عودته من الرقة من دون أن يدري؟

ليس الطويبي الآن ذلك المنفي الراجع. ليس المرتدون اليوم بالمرتدين أمس. وما كان قبل سنين يفزع الصوان لا يأبه له الآن عجوز في الستين. لذلك تريد حورية أن تهدم البيوت على رؤوس أصحابها. أما هو فلا يريد أن يوسع الفتق بينه وبين أحد: لا الحكومة، لا الناس، ولا حورية أيضاً. لكن حورية لا تفتأ تدوّم به في الليل كلما ركبته، وفي النهار كلما أصدرت أمراً. حورية صارت هي الدوامة، لجنة

التحكيم أيضاً منذ انحاز ضده ونسيت من في بيروت، الإنذار الحكومي الأخير بجمع السلاح صار دوامة، ولا أحد يفسح للطوبجي، لا أحد يصبر عليه، فتضيع الحكمة، ويضيع العزم معها، كما بدأت حوريه تصدعه في الليل وهي تركبه، وفي النهار وهي تتفحص استعداد الفرسان للمعركة الفاصلة الوشيكة، وتصيح: وجع ساعة ولا وجع كل ساعة.

كان يردد في سره: سيف الأخوت خشبة، كلما تضاعف عنادها وعناد ابن نديم، واستعر هياج الفرسان. كان يتقرى في سره الخوف من الأيام القادمة، كلما تضاعف انقباض الوجوه التي تتقاطر إلى السنديانة. ولما نقلت العيون أمر المحافظ لقائد الدرك بجمع السلاح بالقوة-وكانت مهلة الإنذار قد انقضت منذ تسعة أيام -- أوقف الدوامات جميعاً، وسعى إلى حوريه، كأنه يصادفها الآن على ضفة النهر، يفتتن بها وهي تلوي، يغتسل ويَغسل بين الصبيةوالنسوة وهي تمتطي فرساً كحلاء، يحتمي بصادق العروضي وهي تحتمي بابن نديم المكشوح، يأمر بجمع السلاح قبل أن تقع الواقعة وهي ترفض، يأمر برفع الراية البيضاء حتى لو كانت الحملة لا تزال بعيدة، وهي تأمر بتعزيز الحواجز وزرع الكمائن، ثم تهجر فراشه.

6

انصلبت عيناه طوال الليلة الاولى على مطرحها في السرير. كان الغيظ يؤبّره مثل اللهفة، وصدره يضيق ببقايا طيبها، وهو يجرد ويرضى، يتأسّى لهول ما يباعد بينه وبينها، وينتظر الليلة الثانية التي أسرعتْ بعدما نقلت العيون اقتراب الحملة من الحاجز الأول. كان ضوء ورسيّ يتسلل من شق النافذة وينصلب مثل عينيه على الجدار. انبثقت شهلا من الضوء أو من الجدار، وَسَعَتْ لتحلّ مطرح حورية في السرير. ارتبك وحورية تنأى مُدمّاة. اقتربت شهلا أصغر وأفتن. تضرّع إليها كي ترد لحورية الجميل فتنقذها. ارتمت شهلا في نهر وحورية في نهر. تصارع النهران حتى توحدا وصبّا في صدره. كاد المصب أن يختنق مراراً قبيل الفجر حين أفاقت حورية على مكابدته، فحبت إليه وهمست:

- هل تشكو من سوء؟

غادر السرير يبحث عن النجاة، وهمس:

- لا أشكو إلا منك.

لحق به صوتها يفيض رقة وحناناً:

- غاضب مني الآن. أعرف. بكرة ترضى وتقول: حورية عمرها ما أغضبتني.

فتح الباب وعبّ من برودة الفجر ومن أنفاسها الدافئة الملهوفة التي اقتربت تحوط ظهره. ارتعش وهو يسكر بأنفاس شهلا. تضاعف ارتعاشه وصوت حورية يتبدل بصوت شهلا:

- لو تعرف ما أخبئ لك يا حبيبي.

استدار وترك ذراعيه تتمرغان على كتفيها قائلاً:

- إياك أن تكوني صنعت لي قريناً. هل تذكرين؟ في ذلك العشاء قلتِ أيضاً: لو تعرف ما ..

أطبق ثدياها شفتيه وهما ينامان على صدره، وصوت شهلا يبحّ في حنجرتها:

- كانت مفاجأة حلوة. لاتنكر، لا لا. المفاجأة الجديدة أحلى. بكرة تعرف. متى انفضّت الحملة سأفرض على الناس رسم الرئاسة. رسم جديد لن يرهق أحداً. ليس المهم أن نجمع على الرغم مما نحن فيه. المهم أنه رسم الرئاسة. لماذا لم يخطر لي من قبل؟ ماعادت مفاجأة. ما كنت أريد أن أخبرك الآن، لكن ما أنت فيه يعذبني أكثر مما يعذبك. ألا تحسّ بي؟

انغمر وجهه في شعرها مناجياً:

- كيف تسألين؟ من يحس بك إذن؟

وابتعد ينقي نثار لعابه من الشعر العابق، وأردف والضحكة تراوغه:

- إنما قولي: عن أي رسم تتكلمين؟ عن أية رئاسة؟

لفّت خصره بقوة وتهدج صوتها:

- رئاسة الطويبي. لولا خوفي من أن تقول: حورية خرّفت، لقلت: رسم العرش. هذا عرش الطويبي يا حبيبي. الطويبي ملك ورئيس. بعين الحاسد مخرز. ومن يقول غير هذا أقتله بنفسي. ما بك في هذه الأيام؟ قبل أن يأخذوك إلى العاصمة كنت أسأل نفسي: ما باله يا حورية؟ شدّة وتزول يا حبيبي. بكرة تذكر كلامي.

تحرر من ساعديها ونضح صوته بالألم:

- عمرك ما كنت إلا هكذا: حالمة، وأشهد: قوية، يليق لك. تحلمين وتصدقين ولا تكلّين من الركض خلف أحلامك. أظن أني كنت مثلك. بكم سنة أكبرك؟ إياك أن تشيعي بكرة: شاخ الطويبي وهرم. مازال الطويبي ينفع في الليل وفي النهار. أنت تعرفين. ولكن طريقك يا حبيبتي مسدودة، واليوم نرى. اليوم لا بكرة. أما إذا بقي لنا يوم آخر فلن تكون من طريق غير طريقي أنا.

ومشى نحو السنديانة ساهماً حتى أوقفه جذعها. تلمس القشر اليابس القاسي وانفلتت عيناه بعيداً. تنهّد وهو يلم نظراته التي تاهت في مدى السنديانة. أفرد ذراعيه على جذعها فقصرتا عنه كثيراً. تمرغت شفتاه بالقشر حتى أدمتا. لحس لسانه قطرة الدم. تمنى لو أنه مازال قادراً على أن يحلم بعرش، لما رضيه إذن إلا من جذع مثل هذا الجذع. تنهّد مناجياً حورية كي تقنع مثله بمطرح تحت هذه السنديانة للعيش وللموت. ترجّع صدى نجواه ملء أذنيه: من سنديانة طوبى عرشنا يا حبيبي. ليس من عرش مثله. لا الزمن يقدر عليه مهما طال، لا الريح إذا جنّتْ، لا الحطابون إذا اجتمعوا، لا المصفحة حتى لو رمت عشرين قذيفة بعد ساعة. جرّبي ياحورية واقلعي أي أثر لأي

جذر وانظري: بعد سنة ينبق، بعد عشرين لن تصدقي: هذه السنديانة. هذه سنديانة الطوبي، هذا عرشي الوحيد يا حبيبتي، هذه مملكتي ورئاستي، أما عرشك فاليوم يطير. اسمعيني هذه المرة يا حورية. إذا طرت يا حورية يطير معك كل شيء. الطوبي نفسه يطير معك. لا تغتري يا حبيبتي من جديد.

كان يتوحد بالسنديانة خلجة فخلجة. وطال به ذلك حتى تصادى انفجار بعيد. هرج البيت قليلاً ثم سكن. نأى عن السنديانة مستطلعاً، ثم عاد إليها مفتقداً الفرسان. لم تترك حورية فارساً ولا ابن عشر إلا دفعته إلى ملاقاة الحملة.

النساء أيضاً خرجن. الشيوخ خرجوا. ربما فعلوا وهو يحتضن السنديانة، أو قبل أن يفرّ من السرير. لم يتخلف أحد سوى أهل هذه البيت. أطفال الطوبية ينتشرون على المطلات والأسطحة. ليست حورية وحدها – راح يفكر والسكون يبهظه– مجنونة. الكبار والصغار أصابتهم عدوى جنونها، وتلك هي أولى البشائر: الانفجار الذي يتصادى من جديد. بل إنه انفجار آخر أقوى وأقرب: صاح وهو يقترب من الدباقة الشمالية. وهذا انفجار رابع شاله إلى سطح البيت وأطلق صوته: أين اختفى الرصاص إذن؟ لِمَ يركض الصبية في كل ناحية؟

كانت حورية قد امتطت فرسها وهي تخاطبه:

- عليّ أن أذهب بنفسي لأعرف ماذا جرى. صوت الرصاص قريب.

فكّر في أن صوت الانفجار قد يكون أصابه بالصمم، فتلفّت وأصاخ، ثم أسرع بالنزول والفرس تحمحم. كان الرصاص يلعلع أقرب وهو يقترب من الفرس، ثم يقف مخاطباً حورية بجفاء:

- انزلي.

- بدلاً من أن تسبقني تقول: انزلي! على الأقلّ قلْ: عجّلي.

قالت مستنكرة، وضاع صراخه في دوي انفجار:

- قلت: انزلي.

وقفز إلى اللجام فيما كان كعباها يهمزان الفرس، اندفعت الفرس وجرّته، فأمسك بساعد حورية وشدها إليه. صهلت الفرس وشبت فارتمت حورية فوقه. انتفض يدفعها ويشتم، وسطعت بندقيتها لصق حذائه. تناول البندقية بيد، وأنهض حورية الصامتة بيد، وصرخ:

- ارجعي إلى البيت ولا تخرجي منه.

- كان الأَوْلى بك أن تسبق فرسانك ما دمت بهذه القوة.

قالت وهي تبتعد، وظلٌّ من الندم يناوشه. التفت عنها ينكر أنها عيّرته، أو أنها لا تقدّر أن القائد ينبغي أن يكون بعيداً، في مأمن، دون أن يعني ذلك جبناً. ومشى بتؤدة مشفقاً على من لا تزال تطيش كالشباب، على الرغم من رجاحة عقلها، ولعلع الرصاص قريباً.

هيأت أصابعه البندقية وغذّ خطاه غرباً، اختلط أزيز الرصاص بلغط يقترب وغبار. انكشف الغبار وهو يتراجع عن خيول عديدة تتسابق نحوه. تلفّت نحو الوادي فإذا بفرس حورية ترمح وحيدة. لعلع الرصاص بعيداً وتماهى اللغط حتى ظهر فارس يصيح:

- مصيبة ياسيدي. أرسلني ابن نديم حتى أبلغكم: اتركوا الطويبة فوراً يا سيدي.

- إلى أين يا دياب بن غانم؟

سأل الطويبي ضاحكاً وملوحاً بالبندقية.

- هزمونا يا سيدي. قتلنا منهم عشرة على الأقل. قتلنا ضابطاً منهم على الأقل وجرحنا كثيرين. لكن من يقدر على المصفحات؟

قال الفارس والآخرون يتلاحمون خلفه.

- وأنتم، هل قُتِل منكم أحد؟

سأل الطويبي ساخراً فاندفع الفارس:

- من يعرف يا سيدي؟ القتلى أكثر من الجرحى. الفرسان تفرقوا في كل ناحية. الناس لجأوا إلى الوادي والمغائر.

أمره الطويبي بالانصراف، ولبث وحده واجماً، لا يجرؤ على أن يتقدم ولا على أن يتأخر. وطال به اللبث حتى تنبه لخدر يسراه، فنقل بندقية حورية إلى يمينه، وافتقد الرصاص والقذائف، وودّ لو ينادي حورية أو ناهي أو غزالة أو عثمان. ولا بد أنه نادى مراراً، بلا صوت، قبل أن تسطع مصفحة في أول الطريق التي أمر يوماً بشقها، لتصل الطويبة بأنحاء الدنيا. تراجع خطوة يلعن رخص الأحراج. اقترب هدير المصفحة، فأسرع إلى السنديانة، ومن الفرجة التي تركتها

للشمس سطعت مصفحة ثانية. توقفت المصفحة الأولى، وانحرفت المصفحة الثانية، وابتعدت قليلاً قبل أن تتوقف. انضغط ظهره بقوة على جذع السنديانة، وراعه أن الجذع ينأى عنه. أغمض عينيه متعجلاً نهاية الصمت الذي ران.

وعندما فتحهما كان درك كثيرون يصلون ما بين المصفحتين. أغمض عينيه ثانية كيلا يرى وقوع البيت بين فكي الكماشة، وارتجفت ذقنه. كان قادراً على أن يبكي، وتمنى لو أن كل شيء ينتهي بسرعة قبل أن يفتح عينيه. ولما فعل دوىّ مكبّرٌ للصوت:

- أنا قائد الدرك. سلّم نفسك يا طاهر عوانة. لا نفع من المقاومة. اخرجْ أنت وكل من معك وأيديكم مرفوعة. بعد ربع ساعة لا تلمْ إلا نفسك.

ارتجفت شفتاه وهما تنفرجان، كما ارتجفت ركبتاه وهو يزحف خطوة خطوة نحو البيت، يتساءل عما إذا كان على عثمان أيضاً أن يرفع يديه ويسلّم نفسه.

لن يصدق قائد الدرك أن لا فارس في البيت، ولا في الطويبة، وأنْ لا بندقية ها هنا غير بندقية حورية. حتى المسدس الذي لم يفارقه منذ سنين، ضاع بين العاصمة وبيروت، ولم يحمل سواه بعدما عاد. وانفغر البيت قبالته كالقبر. توقف متوفزاً وانتصبت البندقية المدلاة. أظلمت عيناه فالتفت خلفاً. اتقد وانطفأ شعاع من فرجة السنديانة أو من سطوع المصفحة، فانتفض الطويبي وانتفضت البندقية، وهجم على البيت حتى ردعه صوت حورية:

- جبناء. كيف انهزموا. أين ابن نديم المكشوح؟ بيدي هذه سأقلته.

تنهد الطوبجي مستسلماً وقال:

- اقتليه يا حبيبتي لو بقيت لك يد تقتل. ابن نديم نجا بجلده، أما أنت وأنا فمن هنا إلى المشنقة.

- فشروا. إذا كنت ملهوفاً عليها رحْ وحدك. أنت أيضاً مثلهم.

صاحت حورية فانغرس كعب البندقية في صدره. اندفعت حورية إليه فانغرست فوهة البندقية في صدرها. أحسّ أنهما يلتحمان الآن لأول مرة، وودّ لو يطول بهما ذلك حتى يهجم قائد الدرك. لكن صوت حورية شق القلب والسكون، ويدها هي التي راحت تخلّع ماسورة البندقية وروحه فانضغط الزناد، وسقط جسدٌ فجسد.

7

لم يكن قد تبقى لديه ما يقال حين نادى المنادي طاهر عوانة الملقب بالطوبجي. كان الموقوفون الذين سبقوا إلى المحكمة يومضون أمامه من الصباح إلى المساء، وهو في صمته يتعجل دوره، يتعجب من كثرة الذين لم يرهم من قبل، موقوفين مثله أو شهوداً أو نظارة. كان يكذّب ويصدّق ويرافع، يتحدى ويتهم، يبرئ ويحكم، حتى نودي عليه، فأفاق مما اعتراه طوال أيام التحقيق الخمسة قبل المحاكمة. وحتى عصر يومها الخامس، حيث وقف نائب الجمهورية يعدد بصوته النسوي: كيس من القنب

مليء بالرصاص في غرفة المؤونة، مناشب رشاش فرنسي، خَطْفُ دركي وقتله، التعامل مع الأجنبي، الإلحاد، قتل المدعوة حورية المرهج..

أصمّت أذنا الطويبي حتى وقف محامي الدفاع الذي عيّنته المحكمة. رامق المحامي طويلاً ثم راح يرامق نائب الجمهورية، وأكبر من نفسه أنْ أصرّ على ألاّ يختار محامياً، ثم غصّ إذ رآها نهب المحاميين، فأصمّ أذنيه من جديد، واندفع يقرّ بتهمٍ أخرى مما نسي نائب الجمهورية أن يعدد، ونسي محامي الدفاع أن ينكر. وملأ صوته المشروخ القاعة ينفي أن يكون من قتل حورية، ينكر كيس القنب ومناشب الرشاش، يترحم على الدركي ويلعن قاتله، يتساءل عن أي أجنبي يعنون، وعمّن لا يتعامل مع أي أجنبي، وجوّد أمام خيزرانة الشيخ بركات: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ثم خرس حتى حمّل محامي الدفاع المرحومة حورية المرهج، زوجة المتهم، المسئولية الكاملة عن كل شيء، فعاد شروخ صوته وهو يملأ القاعة: الطويبي وحده المسئول، لا حورية ولا أحد، لا من الموقوفين ولا من الملاحقين ولا من سواهم. لا ذنب لأحد من الأحياء أو الأموات. وناشدت نظراته هيئة المحكمة أن تنطق بالحكم.

كان يفريه أن أحداً لا يصغي إليه كي يرد شماتة النائب، ويعلن فرحته هو أيضاً بتوزيع الحكومة للأقمشة على الفقراء، أو يعين هو المنكوبين بمثل ما أعانت به الحكومة. كان يتساءل حزيناً عما تساوي مائة ليرة لأسرة فُجعتْ بمعيلها أو تهدّم بيتها. وعتبت آهة منه على الحكومة التي لم تنتظر نهاية المحاكمة، وفكر في موقع أفضل للمدرسة،

وفي أن يوصي بنصف ما يملك لتكون مثل مدرسة الراهبات التي تركها خضر إلى واحد من مقاعد النظارة في الخلف، أمام أمه وغزالة وابنها.

بعد ثلاثة أيام لفظ أحدهم كلمة الإعدام. ربما كان من لفظ العضو الاستئنائي أو العضو البدائي. ربما كان المستنطق أو معاونه. ما همّ، حتى لو كان رئيس المجلس أو محامي الدفاع نفسه. فالطوبيي سبق ونطق بالحكم قبل أن تخترق رصاصة صدر حورية. لم ينتظر أن يُصدر مرسوم قراراً بتشكيل مجلس عدلي أو قانوناً بحماية الاستقلال. لم ينتظر أن يتمطق نائب الجمهورية ويعدد موادّ لا حصر لها من قوانين لا حصر لها. كان قادراً على أن يقرأ المصير المختوم مادامت الكلمة الوحيدة الباقية هي: الإعدام. كان رجعُ الكلمة يملؤه بالحقيقة الوحيدة الباقية: رصاصة، وكانت أذناه تطنّان: الحقيقة لا بد تبان، وهي بنت الزمان، فيما أخذ الدوار يلفّه كأنه طاهر عوانة صغيراً أو كبيراً، وشرطيان يعودان به من قاعة المحكمة إلى السجن.

حنتْ عليه الغرفة التي أفردوه بها فجأر: رصاصة واحدة حتى أموت مثل ميتة حورية. رصاصة واحدة يا بشر. هذا هو الطلب الأخير للطوبيي. لكل محكوم بالإعدام طلب أخير، والطوبيي لا يطلب إلا رصاصة. وجأرت الغرفة: رصاصة واحدة في الصدر. وصدح من قاعة المحكمة إلى طاقة الغرفة صوتُ محامي الدفاع مسترحماً.

ازورّ الطوبيي وردد: ماذا تنتظرون؟ هجم صوت طاهر عوانة من جسر على الفرات إلى صدر الغرفة: أن تعود إليّ. ازورّ متأوهاً: عمرك ما فارقتني. لا أنت قدرت ولا أنا. كنتُ ميتاً فيك وكنتَ حيّاً فيّ. صوّت السجّان فشقّ الطوبيي الغرفة وجرى صريعاً في برّيّة: انهمر البَرَدُ

على يافوخه. ثقّب الرصاص الرأس فجنّ طاهر عوانة. بعثت الطوبية الطويبي، فانطلق طاهر عوانة وحيداً: لا أب ولا أم، لا إخوة ولا عمومة ولا خؤولة ولا مصاهرة، لا أحد سوى سيدنا الخضر يصيبه بالصرع، يفرّ به من ديرة إلى ديرة، يملؤه بالحكمة، ينفي عنه الحيلة والشعوذة والهبل، يباركه بالكرامة والولاية، ينسبه إلى معجزة ومعجزة، يدفع إليه بالفأس ليركش في أرض عبد الحليم آغا والخوري اسطانيوس، يوقد حافظته ويطلق من صدره النداء: يا عمر بن الخطاب، ينادي عمر: ياسارية: الجبلَ الجبلَ، يسيل الماء والعسل واللبن من قربةٍ أو من مزقةٍ خضراء، ويخلّص الطويبي من كيد صادق العروضي ونائب الجمهورية، يرشّه بدم شهلا، ينفخه بضمة من الريحان اليابس على قبر حورية، يحفر حفرة ويشفع له من ضغطة القبر، يرميه على الصراط وينساه خارج الزمان، يغدو هو مجذوباً ووليّاً وعالماً وشيخاً وإماماً إذ يجوز القنطرة. تتكاثر له الأسماء والنعوت إذ تمرق شهلا مثل برق الطوبية، تعدو حورية عدو الفرس الكحلاء، تلسع النار مطرحاً منه وتترك مطارح، يحبو ويمشي ويبرق ويعدو، لكنه يظل معلقاً والنار تلسع وتترك. يتده: ياسيدي، يا أبو العباس، يا خضر، ياسيدي، ويظل يتده حتى يفتح السجان باب الغرفة ويخاطب مبالغاً في التأدب:

- تفضل.

- إلى أين.

تساءل الطويبي وهو يجمع أبعاضه وينهض:

- أظن إلى العاصمة. ألا تجمع هذه الأشياء؟

قال السجان وهو يأخذ بساعده:

– لا حاجة لي بشيء. الرئيس إذن صدّق الحكم؟

قال الطويبي، فأومأ السجان، ومشيا صامتين إلى السيارة التي تنتظر عند باب السجن منذ الظهيرة.

تشبّه قفص السيارة بالغرفة، سوى أن السجان يجالسه هنا، والسجن كله يطير. بعد قليل تشبهت كوّة القفص بنافذة رملة. تعلقت أصابعه بملاسة الحديد حتى بلغت قضبان النافذة. اختفت رملة وبنت لها وكاد البحر أن يختفي. تقوقع في خان، ثم استلقى وسط المطحنة. تقلقلت السيارة كأنها على طريق حراجيّ شقّ منذ دهر ونُسي. انخطفت من حضنه مدحلة وفحم وسائق. أسلست السيارة وتسربلت بالظلام. فكر في أن الدنيا أخذت تسلس له الآن فقط، وأنه قادر على أن يسربلها بما يهوى. عجّت السيارة بالبشر وصاحت به الأصوات مُجدةً. أنكر أن تكون هذه هي الدنيا. أفسحت الأصوات لسماوات وبحار وجبال وغابات وبوادٍ وأنهار. أنكر أن تكون هذه هي الدنيا. وشرع ينغّم صوته: الدنيا دواهي والدواهيْ الدنيا إذا أقبلتْ أدهشتْ وإذا أدبرتْ أملحتْ، اللي يأكل حلوتها يتحمل مُرّتها، جيفة وطلابها كلاب، الدنيا دار زوال وصندوق فرجة، دار لهو وسلالم، ناس تطلع وناس تنزل، الدنيا مع الواقف، مثل الرقاصة، لكل واحد بترقص شويّ.

سأل طاهر عوانة عن الآخرة. أقبل الطوبجي يشكل فضاءً وأحياء ويبلو بعضاً ببعض. هدر محرك السيارة عالياً وتضاءل الكون، ولم يفتأ المحرك يهدر والكون يتضاءل حتى تخلّق عرش صغير يضيق عن قفا عثمان الطوبجي. تبرّم قفاه هو على الحديد البارد العاري وهج: هذه هي الدنيا. خذوها. ما عدت أريدها، أما الآخرة، أما الآخرة.. وانعقل لسانه حتى تثاءب السجان أخيراً وتعتع:

- وصلنا. والله نمت نومة مشبعة!تأخرنا!

وتعلق بالنافذة متابعاً بانشراح:

- تعال انظرْ: هذه هي العاصمة أم لا؟ أنت تعرفها. عمري مادخلتها إلا هذه المرة.

حاول الطوبجي أن يقف فعجز. أدرك أن السيارة توشك أن تلفظه. حاول من جديد وعيناه تتعلقان بظهر السجان الذي صاح منزعجاً:

- اختفت المدينة. أين صرنا؟

تباطأت السيارة والطوبجي يجرب النهوض. ولما توقفت كان قد استطاع أن يحاذي السجان. انفتح الباب بقسوة، ودوّى أمر بالنزول. حاول السجان أن يسند الطوبجي، فأسرع بالنزول وحيداً كأن مساً أصابه فجأة. همس صوت أليف:

- أهلاً وسهلاً. أخيراً هذا أنت!.

تقدم زائع العينين والبنادق تحفّ به. بعد أمتار أمر البنادق أن تتباعد حتى لا يختنق. توقف الموكب قليلاً وتناهى إليه صوت يعلن ملل الوزراء من الانتظار، وصوت يعلن اقتراب الفجر، وصوت يؤكد أن كل شيء جاهز. تحرك الموكب بسرعة وراح يصغر حتى بات

الطوبجي في غرفة فسيحة. أقبل بعد قليل صوت مستوحش يسأل عن الطعام. تمدد الطوبجي على السرير الصغير وأحسّ أنه يصفو من كل شائبة. وكاد أن يغفو لولا أن ضابطاً دخل وأشار إلي كرسي بعيد.

مشى الطوبجي خفيفاً إلى الكرسي، قرّبه من الطاولة القريبة، وجلس. خرج الضابط وسُمِعَ صوتٌ يجزم بأن كل شيء سينتهي بسرعة. دخل الضابط ودخل إثره الشيخ ناظر ميمونة. قال الضابط باحترام بالغ:

- الشيخ يلقنك.

ابتسم الطوبجي وهمس:

- ما اختاروا لي غيرك؟

قال الشيخ ناظر والضابط يخرج:

- كم تمنيت هذا اليوم

قال الطوبجي بصفاء:

- أما أنا فلا أتمناه لك.

سأل الشيخ ناظر بصوت خافت وهو يستطلع الغرفة:

- كتبتَ وصيتك؟

قال الطوبجي:

- اكتبْ: أطلب العفو عن كل من له ضلع بهذه القضية. أوصي بساعة يدي لولدي خضر. الخاتم لعثمان. ابن غزالة بنت الشيخ ناظر ليس له عندي شيء، لا هو ولا أمه. أطلب الإعدام بالرصاص لا شنقاً. وأوصي أن تلفوا جثتي بالعلم، وأن تدفنوني في مكان مجهول.

قال الشيخ ناظر وهو يخفي اضطرابه المفاجئ:

- خفت أن تملي عليّ جريدة. أهذا كل ما عندك؟

قال الطويبي:

- هذا كل شيء. الجرائد تكذب عادة.

قال الشيخ ناظر:

- بدأ إذن: ردْ خلفي: بسم الله الرحمن الرحيم.

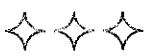

اللاذقية نهاية 1994

مؤلفات نبيل سليمان

في الرواية

1-ينداح الطوفان:الطبعة الأولى 1970-الطبعة الثانية1994.
2-السجن:الطبعة الأولى 1972-الطبعة الخامسة 1999.
3-ثلج الصيف:الطبعة الأولى 1973-الطبعة الرابعة 1994.
4-جرماتي: الطبعة الأولى 1977-الطبعة الثانية 1995.
5-المسلّة:الطبعة الأولى 1980-الطبعة الثالثة 1997.
6-هزائم مبكرة:الطبعة الأولى 1985-الطبعة الثالثة 1994.
7-قيس يبكي:الطبعة الأولى 1988-الطبعة الثانية 1995.
8-مدارات الشرق:الجزء الأول:الأشرعة-الطبعة الأولى 1990-الطبعة الثانية1994.
9-مدارات الشرق: الجزء الثاني: بنات نعش-الطبعة الأولى 1990-الطبعة الثانية 1994.
10-مدارات الشرق: الجزء الثالث: التيجان-الطبعة الأولى 1993.
11-مدارات الشرق: الجزء الرابع: الشقائق- الطبعة الأولى 1993.
12-أطياف العرش: الطبعة الأولى 1995،الطبعة الثانية 2000.
13-مجاز العشق:الطبعة الاولى 1998.

في النقد الادبي والثقافة:

14-الأدب والأيديولوجيا في سورية(بالاشتراك مع بوعلي ياسين) الطبعة الأولى 1974-الطبعة الثانية 1985.
15-أيديولوجية السلطة-الطبعة الاولى،1995 الطبعة الرابعة 2000.
16-النقد الأدبي في سورية-الطبعة الاولى 1980،الطبعة الثانية 2000.
18-أسئلة الواقعية والالتزام-الطبعة الاولى 1985.
19-وعي الذات والعالم-الطبعة الاولى 1988،الطبعة الثانية 2000.
20-الماركسية والتراث العربي الإسلامي-الطبعة الأولى 2000.
21-في الإبداع والنقد-الطبعة الاولى 1989-الطبعة الثالثة 2000.
22-فتنة السرد والنقد-الطبعة الاولى 1994،الطبعة الثانية 2000.
23-سيرة القارئ-الطبعة الأولى 1996.
24-حوارات وشهادات-الطبعة الاولى 1995،الطبعة الثانية 2000.
25-الثقافة بين الظلام والسلام-الطبعة الاولى 1996،الطبعة الثانية 2000.
26-حوارية الواقع والخطاب الروائي-الطبعة الثانية 1998.
27-بمثابة البيان الروائي-الطبعة الأولى 1998.
28-الرواية العربية: رسوم وقراءات-الطبعة الاولى 1999.
29-الرواية والحرب، الطبعة الأولى 1999.
30-المتن المثلث، الطبعة الأولى 1999.
31-الكتابة والاستجابة، الطبعة الأولى 1999.

أطياف العرش

"وكما هجم الشتاء بجمعه وبكّر، فعل الصيف، وعاد الطوبي لا يبارح السنديانة. كان يطيب له أن يسترخي في ظلّها الناعش، يحمل صغيره أو يرمق غزالة التي انتفخ بطنها، يهامس صادق معابثاً كلما انفردا، يتلذذ بما يتناهى إليه من المدينة، فها هي الأيام تتوالى، وفرنسا لم ترحل، والحكومة لم تهاجم، وكل أمر يسير بانتظام لا عهد لأحد به. أما دولة الطوبي فأين هي؟

كانت الأطياف التي ما عادت تنقطع تسفر كل حين عن السؤال، تقرأ له ما قرأ عندما كان هارباً تنسيه ما حفظ وتروي بأصوات جديدة ما روى له كثيرون من قبل، تقرب الحدود من بعضها، تحمله فوقها، تسمّي ملوكاً وممالك ورؤساء ودولاً، وعندما تنجلي عن قتلى ومنفى ومحكمة، ينفر ويؤكد أنه لم يبتغ يوماً شيئاً من هذا، ولن يبتغي.

وبين غيبة للسؤال وظهور كانت عيناه تضمّان السنديانة حتى توحّداه بها وتتركاه يلهج فقط بسنديانة مثلها، أصلها هناك، في دار الحبيب، وما من مؤمن إلا في داره منها غصن، وما من شهوة يشتهي إلا يأتيه بها الغصن".

نبيل سليمان، الروائي والناقد، في هذه الرواية يثري عالمه الروائي الذي قدم وجهاً أصيلاً في الكتابة العربية.

أبو عبدو الغزال
https://facebook.com/groups/abuab/

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339